ريم احمد فتحي

حلــوى الذكريات

تصميم الغلاف والإخراج الفني

مونيكا عزت لبيب

التعديل الفني

كريم زعزوع

المراجعة اللغوية

ChatGPT – عشان ما عِندناش فلوس

تألـــــيف

ريم أحمد فتحي أحمد منير

نسخة النشر الإلكترونية الأولى:

أكتوبر ٢٠١٧

نُشر عبر منصة كتُبنا :

www.kotobna.net

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة:

ريم أحمد فتحي أحمد منير

لا يجـوز إعـادة نشـر أي جـزء مـن هـذا الكتـاب بـأي

وسـيلة دون إذن كتـابي مسـبق مـن المؤلفـة.

شكر خاص لـ

جوليا بطـرس، سـماح كمـال، د.ريهـام الصعيـدي، فبرونيا، د.محمـد ابراهيـم، وأولادي اللي مخلفتهمـش بـس بيقولـولي يـا مامـا :)

إهـــداء

هـذا الكتـابُ رسـالةٌ إلى مَـن لـم يَسـعَنِي الوقـتُ لأكـونَ معهـم، لـم يَعُـدِ الاعتـذارُ قائمًـا أو مقبـولًا، ولكـنِ التمسـوا لي العـذرَ وسـامحوني، فلـم يَبـقَ في العُمـرِ الكثيـر.

المقدمه

دي صفحـه ملهـاش لازمـة ممكـن
تدخـل على اللي بعدهـا على طـول :)

الفهرس

شيزوفرينيا	٦
المشهد الأخير	١٤
حلوى الذكريات	٢١
يوما ما	٣١
خلف جدار القلب	٤١
كيريااليسون	٦٤

بينَ جَنَّةِ النّارِ.. ونارِ الجَنَّةِ

تَقِفُ أَفكارُنا مُكتَفَّةً.. يَعجِزُ عَقلُنا عنِ اتِّخاذِ قرارٍ

شيزوفرينيا

سأرحلُ.. عليَّ أن أرحلَ..!! لم يَعُدْ لك حاجةٌ إليَّ، لم تَعُدْ تحتاجُ لما أُعطيه بعد الآن.. فَهِمتُ الآن كلَّ شيء، لا تقلق.. لن أُسبِّبَ إزعاجًا.. سأرحلُ بكلِّ هدوءٍ.. ربَّما يَحتمُ عليَّ أن أقتُلَني كما سأقتُلك.. نعم.. سأقتُلك.. سأقتُل كلَّ شيءٍ يُذكِّرني بك.. سأقتُل كلَّ دمعةٍ تَخرُجُ منِّي شوقًا إليك.. سأقتُل كلَّ دقَّةِ قلبٍ تَنبُضُ باسمك.. لن أدعَ شيئًا يُذكِّرني بك.. لن يطولَ بقائي، لا تبدأْ بالتذمُّرِ هكذا.. سئمتُ سماعَ تذمُّرك كلَّ يومٍ.. سئمتُ سماعَ صوتِك العالي، الذي لا تُجيدُ فعلَ شيءٍ سوى النُّباحِ به طيلةَ اليوم..

يا إلهي.. كيف لم أرَ كلَّ هذا يأتي من قبل..!! كيف لم أكتشفِ الحقيقةَ مُبكِّرًا.. يا إلهي كيف سأرحلُ..!! من سيعتني بك.. من سيوقظُك كلَّ يومٍ لتَلحقَ بمواعيدك.. من سيحكي لك قصصًا في مرضك حتى تنسى الألمَ وتنام..؟! يا إلهي.. فلتفعلْ ما تشاء.. لماذا أهتمُّ لأمرك.. لماذا ما زلتُ أخافُ عليك.. ألم يكفِني ما جرى منك..!! يا إلهي.. ما زال قلبي متعلِّقًا بك.. متعلِّقًا بكلِّ تفاصيلِ وجهك.. لا تُفارقني تلك النظرةُ أبدًا.. نظرتُك عندما كنتَ ذلك الشخصَ الذي تعرَّفتُ عليه منذ سنوات.. تلك النظرةُ التي كنتَ فيها ترجوني ألا أرحل.. نظرةُ الامتنان لأنني هنا بجانبك.. ماذا حدث..!! كيف تغيَّرتَ هكذا..!! لم يَعُدْ باستطاعتي معرفتُك.. أو تمييزُ ملامحِ وجهك.. تُشبه شخصًا كنتُ أعرفُه، بل

أَعشَقُه.. ولكن متى تبادلتم الأماكن.. كيف استطعتَ فعلَ هذا..؟! قُلْ لي كيف بإمكان أحدِهم أن يتغيَّر هكذا بدونِ سابقِ إنذارٍ أو سببٍ.. كيف.. فقط قُلْ لي كيف..؟!

«يُغريني كثيرًا هذا المسمارُ الغليظُ الذي تتعلَّقُ بهِ الثريَّا.. وبقايا حبلِ الغسيل تُغريني أكثر..»

لا.. لا لن تكونَ هذه نهايتي.. لن أدَعَه يُسلِبَني عقلي.. لن أُجَنَّ.. لن أسمحَ بهذا أبدًا.. لم أَعُد أستطيعُ أن أتذكَّر كيفَ تقابلنا.. لم أَعُد أستطيعُ أن أذكر كيف أحببتُكَ.. ليس هذا هو السؤالُ الصحيح.. عليَّ أن أسألَ أين ذهب هذا الذي أحببتُه.. أين ذلك الشخصُ الذي أَدمنتُ رؤيةَ وجهه كلَّ يومٍ قبل أن أنام.. أين ذهب هذا الذي كنتُ أنامُ بجانبه باطمئنانٍ..

عليَّ ألا أنظرَ كثيرًا لذلك المسمار.. لماذا أنظرُ له كثيرًا.. عليَّ أن أُسيطرَ على ما أفعلَ وعلى تلك الفكرةِ المجنونةِ التي تُحاصرني.. بدأ عقلي يخرُجُ عن سيطرتي

«إذا جلبتُ فقط ذلك الكرسيَّ ووقفتُ عليه سوف...»

توقَّفي توقَّفي.. ماذا تقولين..!! كُفِّي عن هذا.. عودي إلى رُشدك قليلًا.. لستِ أولَ امرأةٍ تُطلَّق.. ولستِ أولَ امرأةٍ يهجُرها من عشقته.. من تركتِ العالمَ لأجله.. كلُّهم يتشابهون.. فقط هناك امرأةٌ عرفت كيف تُخفي هذا عن الآخرين.. فلتكفِّي عن هذا.. رأسي إنْ لم يكفَّ عن الصراخِ بتلك الفكرةِ سينفجرُ قريبًا..

لم أفهم بعد.. لم أفهمْ ما الذي طلبتُه حتى تأتي ثورتُك عليَّ.. لم أطلبْ سوى حقي.. كلُّ ما طلبتُه هو أن تكونَ بجانبي.. أن أجدَ الدفءَ بين أحضانك عندما أتعب.. أن أجدَك تَمسحُ دمعتي عندما أحزن.. فقط كما كنتُ أفعلُ معك.. أردتُ فقط رؤيتَك بجانبي.. أردتُ فقط أن أرى – ولو مرَّةً واحدةً – انعكاسَ صورتي داخلَ عينيك العسليَّتين كما كانت في الأيامِ الخوالي.. ربَّما كان هذا أكثرَ من حقي.. ربَّما تماديتُ في طلبِ ما هو حقٌّ لي.. نعم.. تماديتُ كثيرًا.. فأنا التي اعتقدتُ بأنني أَعني لك شيئًا.. لكنَّني كنتُ مُخطئةً.. ولم أعرفْ هذا إلا بعد أن أحببتُك.. يا وَيْلَتاهُ! كم ضاع عمري.. ضاع من أجلك..!! كيف تركتُك تَسلُبُ منِّي كلَّ شيء.. قلبي، روحي، عقلي، سلبتَ حتى وقتي من الجميع.. تركتُ الكلَّ من أجلك أنت فقط.. تركتُ العالمَ من أجلك.. وأنت لم تجدْ بضعةَ لحظاتٍ تختلسها من أجلي.. من أجلِ أن تسمعَ شكواي.. من أجلِ أن تُخفِّفَ عني آلامي، التي سببتَها أنت..!!

«لن تؤلِمَني فعلتُها.. نعم لن تؤلم..»

كفى كفى.. أنهكني التفكير.. ألا تستمعي إليَّ أبدًا.. لن تكُفِّي إلا عندما تقضينَ على كلِّ شيء.. كُفِّي عن هذا.. لن أسمحَ له بأن يكونَ هو سببَ جنوني.. سأبدأ من جديد.. نعم عليَّ أن أجدَ طريقًا بعيدًا كلَّ البعد عنه.. سأحتفظُ بما تبقَّى من نفسي لي.. سأكونُ لي عونًا.. سأعتني بي جيِّدًا.. لا أستطيعُ أن أكرهه.. ولكن باستطاعتي ألا أُعطيه

مكانتَـه مـرَّةً ثانيـةً.. أسـتطيعُ أن أقتـلَ قلبـي بداخلـي وألا أضعـفَ مطلقًـا..

«هـذا الكرسـيُّ خفيـفٌ وعـالٍ.. سـيُؤدّي الغـرضَ فلنجلبـه.. نعـم تمامًـا فـي منتصفِ الغرفـة.. تحت تلـك الثريَّا.. سـيكونُ علـيَّ أن أزيحَهـا.. لـن أُغامـرَ بكسـرِها.. لقـد كانـت باهظـةَ الثمـنِ حقًّـا.. سـأُزيحُها ببـطءٍ.. ربَّـاهُ، كـم هـي ثقيلـة..»

مـاذا أفعـلُ مـاذا أفعـلُ..؟! أجننـتِ؟ أعيـدي تلـك الثريَّـا إلى مكانهـا.. فـورًا.. لـن أُعيـدَ كلامـي مـرَّةً ثانيـةً..

«تريديـنَني أن أبقـى؟ لِمَـن؟ لقـد انتهـى كلُّ شـيء.. لـم يَبـقَ شـيءٌ منِّـي لأعيـشَ لـه.. لمـاذا تُقاومـين.. لمـاذا لا تريديـنَ إنهـاءَ حياتـكِ البائسـةَ تلـك.. ألـم يكـفِ مـا حـدث.. هيـا.. تمامًـا.. أعقـدي الحبـلَ جيِّـدًا.. لا تدعـي أيَّ خطـأٍ يوقِـفُ مـا سـيحدث.. لـن تشـعري بشـيء.. هيـا تشـجَّعي.. نعـم.. هـذا جيِّـدٌ، ثبِّتـي ذلـك الطـرفَ جيِّـدًا فـي ذلـك المسـمارِ الغليـظ.. تأكَّـدي بأنَّـه سـيتحمَّلُ ولـن يسـقط.. حسـنًا.. ضعـي تلـك الفتحـةَ حـول عنقـك.. جيِّـد.. لـم تَعُـدْ يـداكِ ترجفـان.. لـم يَبقَ شـيئًا سـوى أن تركلـي هـذا الكرسـيَّ بقدمـك.. هيـا.. تحلَّـي بالشـجاعة.. لـن تشـعري بأيِّ شـيء.. سـتنكسـرُ عظمـةُ العنقِ سـريعًا.. لـن تتألَّمـي أبـدًا.. سـتكونُ العمليَّـةُ سـهلةً.. تعلمينَ هـذا جيِّـدًا.. سـبعُ سـنواتٍ فـي تلك الغرفـةِ – غرفـةِ المشـرحةِ الكئيبـةِ المظلمـةِ – ألا تذكريـن تلـك المحاضـرةَ؟.. يلتـفُّ الحبـلُ ويضغـطُ على شـرايينِ العنـقِ مـن الطرفيـن.. يُـؤدّي إلى نقـصِ وصـولِ الدمـاءِ إلى الـرأس.. ممَّـا يُـؤدّي لنقـصِ

الترويةِ الدمويَّةِ عن الرأسِ والمراكزِ القلبيَّةِ والتنفسيةِ..
وفي النهايةِ يأتي الموتُ سريعًا.. عمليَّةٌ لا تأخذُ وقتًا..
تعلمين بأنَّها أحدُ أقلِّ الطرقِ ألمًا للإعدام.. هيا.. فقط
ابتعدي عن الكرسيِّ ودَعي جسدَك يستسلمُ للفراغِ
الأبدي..»
لا.. لا لن أفعلَها..
«ماذا..!! لا لا.. لا تخلعي العقدةَ عن عنقك..»
بل سأخلعُها.. لن أدَعَك تُضعِفينَ أبدًا.. على الأقلِّ ليس
من أجله.. سأخذُ تلك الثريَّا معي.. لطالما أَعجبتني.. لا
يستحقُّها هو.. لم يكترثْ لأمرِها أبدًا..
«أعيدي ذلك الكرسيَّ إلى مكانه..»
لا.. سأتركُه.. وسأتركُ المشنقةَ مُعلَّقةً.. إذا كان على
أحدِهم أن يُشنقَ فليكنْ هو لا أنا.. فلندَعِ المشنقةَ له..
ربَّما سيأتي اليومُ الذي لن يجدَني فيه ويندم.. وتكونُ
له سبيلًا للخلاصِ من آلامِ ضميره.. فلتمحَ صورته
كاملةً من عقلي.. وسأعلِّقُ مشنقةً أخرى لقلبي حتى
يَكفَّ عن ذِكر اسمه أمامي.. لن أموتَ من أجله..
فليمتْ هو..

تمت بحمد الله
يناير ٢٠١٤

من أكبرِ أكاذيبِ الشيطانِ
هي أنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلةَ.

المشهد الأخير

مـن خلـف الزجـاج العاكـس لغرفـة العنايـة المركـزة، كان عاصـم يقـف متجمّـدًا.. يُحـدّقُ فـي وجهِهـا النائـمِ ويسـتمعُ إلى صفيـرِ جهـازِ القلـبِ المُتباعـدِ السـاكنِ بجانبِهـا.. يـرى أنبـوبَ الأكسـجينِ يخـرجُ مـن فمِهـا الـذي تحـوَّل لونُـهُ إلى الأزرقِ ويـرى كدمـاتٍ حمـراءَ وزرقـاءَ تتناثـرُ على الجانبِ الأيسـرِ مـن وجهِهـا.. لـم يعرفْ أكان هـو السببَ أم كان القـدرَ..!! لـم يكـنْ عليـه أن يذهـبَ إلى عاصـم.. لـم يكـنْ عليـه أن يسـتمعَ إليـه فيمـا أرادَه.. فهـذا مـا جنـاهُ..

خفـقَ قلبُـهُ سـريعًا عندمـا شـعرَ بأنَّـه قـد يفقدُهـا فـي أيِّ لحظـةٍ.. لـن يسـتطيعَ أن يُسـامحَ نفسَـهُ إذا حـدثَ لها شـيءٌ.. هـو السـببُ فيمـا حـدثَ.. نعـم هـو السـببُ.. لـولا ذهابُـهُ إلى فـيلا عاصـم لكانـت معـه الآن تسـمعهُ وتـراهُ.. ويحـاولُ أن يُعيـدَ مـا كان بينهمـا..

«سـحقًا لـك يـا عاصـم!» قالهـا بصـوتٍ يـملأُهُ الغضـبُ ممتزجًـا بالحـزنِ.. لا يـدري كيـف أطاعَـهُ وفعـلَ ما فعـلَ.. كان عليـه أن ينتظـرَ.. ويخاطبَهـا ويحـاولَ أن يُعيـدَ كلَّ شـيءٍ كمـا كان..

كان الأمـرُ يفـوقُ قدرتَـهُ على التحمُّـلِ.. حمـلَ الكرسـيَّ إلى جانـبِ سـريرِها وجلـسَ عليـه.. أمسـكَ يدَهـا اليُمنى وقبَّلَهـا.. احتضنَهـا بيـدِهِ وأراحَ رأسَـهُ فـي قبضتِهـا.. وظـلَّ يهمـسُ بكلمـاتِ لـومٍ لنفسِـهِ..

لـم يكـن يـدري بأنَّهـا تشـعرُ بوجـودِهِ.. وتسـمعُ همسـاتِهِ وتشـعرُ بيـدِهِ البـاردةِ فـي يدِهـا.. ولكنَّهـا لـم تسـتطعْ أن تفتـحَ عينيهـا.. أرادتْ ولكـن لـم تُطِعْهـا.. لـم تسـتطعْ أيضًـا

تحريكَ فمِها لتُناديَهُ.. لتسألَهُ لماذا فعلَ هذا..؟ لماذا..!! كانت تشعرُ بأنَّ عقلَها سينفجرُ.. كلَّما كانت تحاولُ تحريكَ أيِّ جزءٍ من جسدِها لا يستجيبُ لها شيءٌ.. تشعرُ بالشللِ التامِّ.. كلَّما حاولتْ أن تُجبِرَ عينيها على الفتحِ كان يأتي ذلك المشهدُ إلى مخيلتِها.. المشهدُ الذي آلمَها كثيرًا.. المشهدُ الذي لم تتخيَّلْ أن يحدثَ أبدًا.. تلك المكالمةُ الغامضةُ التي جاءتها لتخبرَها بأنَّه هناك.. يستمتعُ بوقتِهِ ناسيًا إيَّاها.. لا يُبالي بخلافِهما.. جَرَتْ إلى العنوانِ.. وهناك..

أمامَ عينيها رأتْهُ جالسًا وتجلسُ إحداهُنَّ بجانبِهِ.. تضعُ أرجلَها على أرجُلِهِ لتسقطَ بينهما.. ويلتفُّ ذراعُها حولَ عنقِهِ ويداها الأخرى تُداعبُ وجهَهُ.. ووجهُها يكادُ يُلامسُ وجهَهُ.. لم تتحمَّلْ تلك الصدمةَ.. لم تُصدِّقْ نفسَها إلا وهي تنطقُ اسمَهُ.. فينتفضُ هو من مجلسِهِ يرتسمُ بوجهِ طفلٍ وجدتْهُ أمُّهُ يسرقُ شيئًا من حافظتِها.. لم يستطعْ أن ينطقَ بشيءٍ ولم تستطعْ هي أيضًا.. لم تشعرْ بنفسِها إلا وهي تركضُ إلى سيارتِها.. تفتحُها وتركبُها وتنطلقُ إلى حيثُ لا تعلمُ.. تنطلقُ بالسيارةِ بكلِّ سرعةٍ في الشوارعِ.. لا تدري بأنَّه يجري وراءَها بسيارتِهِ يحاولُ أن يلحقَ بها.. يتكرَّرُ المشهدُ أمامَ أعينِها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.. لا تستطيعُ أن تُوقِفَ عقلَها.. تتمنَّى أن تموتَ.. أو أن تصحوَ لتجدَ أنَّ كلَّ هذا ليس إلا كابوسًا مزعجًا سببُهُ خلافُهما..

لا يزالُ هو يجلسُ بجانبِها منتظرًا أن تفيقَ.. لا يُفارِقُهُ ذلك المشهدُ أبدًا.. مشهدُ دخولِها عليه وهو بصحبةِ غيرِها في مثلِ هذا الوضعِ.. ولا يستطيعُ محوَ تلك اللحظةِ عندما رأى سيارتَها تعبرُ التقاطعَ بسرعةٍ وتلك المقطورةُ

تتَّجهُ نحوَها بكلِّ قوَّةٍ.. لم يستطعْ أن يُبعِدَ نظرَهُ عن هذا المشهدِ.. والمقطورةُ تَسحَلُ سيارتَها لأمتارٍ قليلة قبل أن تتوقف بعنف... وهي بداخِلِها..

تكَوَّمَتِ السيارةُ تحتَ المقطورةِ.. حاولَ هو والسائرونَ أن يُخرجوها من حُطامِ السيارةِ.. ولكنهم لم يستطيعوا.. ظلَّ يحاولُ حتى أتتِ الإسعافُ ورجالُ الشرطةِ وقطعوا جزءًا من معدنِ السيارةِ الذي تهالَكَ تحتَ عجلاتِ المقطورةِ.. أخرجوها والدماءُ تُغطِّي كلَّ شبرٍ في جسدِها.. لم يستطعْ أن يُميِّزَ وجهَها.. لم يستطعْ أن يمنعَ نفسَهُ من البكاءِ طوالَ الطريقِ.. حاولَ أن يتماسكَ ولكنَّه كان أضعفَ من أن يفعلَ..

وقعَ على الكرسيِّ خلفَهُ عندما أخبرَهُ الطبيبُ أنَّ حالتها غيرُ مستقرةٍ ولن تعيشَ طويلًا.. ولا أحدَ يعلمُ هل ستفيقُ من غيبوبتِها أم لا.. وأنَّ الصدمةَ عرضَتْها لانهيارٍ عصبيٍّ حادٍّ.. ومع إصاباتِها البالغةِ في الحادثةِ قد لا تنجو أبدًا..

يتذكَّرُ كلَّ هذا ويبكي.. يبكي لأنَّه يعلمُ يقينًا بأنَّه هو السببُ.. بأنَّه هو من فعلَ هذا بها.. هو مَن دمَّرها ومِن قبلِها كسَر قلبَها.. ولكنَّ الله يعلمُ بأنَّه لم تكنْ تلك نيَّتَه.. لم يكنْ يريدُ أن يحدثَ أيًّا من هذا أبدًا.. لم يكنْ يرغبُ أن تنتهيَ حياتُها بهذا المشهدِ.. وأن تكونَ خيانتُهُ لها هي مشهدَها الأخير..

شعرَ بيدِها ترتجفُ بين يديهِ ورأى كلَّ جسدِها يرتجفُ وينتفِضُ.. نادَى على الطبيبِ.. الذي جاء مسرعًا.. حاول الطبيب إنعاشها لثوانٍ، ولكن كان جسدُها كلُّهُ يرتعشُ بعنفٍ.. وفجأةً سكنَ تمامًا لا يتحرَّكُ.. وظلّ الخطّ

الأخضر مستقيمًا بلا نبض.. كان يستمعَ إلى صافرةِ الجهازِ المتواصلةِ.. وهو يكادُ أن يُجَنَّ ويحاولُ أن يُوقِظَها مناديًا عليها.. لم يكنْ يدري بأنَّ عاصم خلفَهُ.. يقفُ وراءَ الزجاجِ من خلفِهِ.. تَنزِفُ عينُهُ دمعًا عليها.. كل ما خطط له هو أن يُثير بينهما خلافًا يدفعها للابتعاد عنه، لا أن يدفعها للموت.. كان يُحبُّها.. كان يعشقُها.. يريدُها ملكَهُ.. ولكنَّها ذهبتْ لغيرِهِ.. لصديقِهِ.. كان فقط يرغبُ أن يستغلَّ الخلافَ بينهما ليقطعَ كلَّ شيءٍ.. ويقفَ هو أمامَها ليكونَ المُنقِذَ ليكسبَ قلبَها.. ويستعيدَها.. ولكنَّه لن يستطيعَ أن يرى وجهَها مرَّةً أخرى.. لن يكونَ في استطاعتِهِ أن يُقبِّلَ يدَها عندما تُقبِلُ عليه.. لن يستطيعَ..

فقد خسرَها..

وليس لشخصٍ آخر..

بل خسرَها للأبدِ..

للأبدِ..

تمت بحمدلله

فبراير ٢٠١٥

الذكرياتُ لا تُنسى، ولكنَّنا نتناسَاها..

تظلُّ قابعةً في أعماقِ صندوقِ الذكريات..

تخرجُ عندما نعتقدُ بأنَّنا قد نسيناها، لتُذكِّرَنا

بأنَّها ما زالت هنا.

حلـــوى الذكريات

لم ينظرْ لعدادِ سيارتِهِ الذي تخطَّى ١٠٠ كيلومترٍ في الساعةِ وهو يقطعُ هذا التقاطعَ المزدحمَ بصورةٍ جنونيةٍ، لم يكن يفكِّرُ في شيءٍ سوى أن يصلَ إلى المستشفى حيث قالوا له بأنَّها هناك.. لا يُصدِّقُ حتى الآن تلك المكالمةَ التي أتتْهُ لتحملَ خبرَ محاولةِ انتحارِها ونقلِها إلى المستشفى.. ظلَّ يُكذِّبُ نفسَهُ طولَ الطريقِ، لا يستطيعُ أن يُصدِّقَ بأنَّها قد تفعلُ هذا بنفسِها. لم يكن يدري بأنَّها قد دخلت في مرحلةِ اكتئابٍ شديدةٍ منذُ انفصالِهما.

كان يلومُ نفسَهُ دائمًا على انفصالِهما، لم يكنْ عليه أبدًا أن يوافقَ على انفصالِهما، لكنَّها لم تُعطِهِ فرصةً. أصرتْ على الانفصالِ بعد أن عرفتْ بأنَّها لن تستطيعَ أن تنجبَ له طفلًا. لم تستطعْ البقاءَ معهُ من بعدُ، لم تستطعْ النظرَ إليه أو الطلبَ منه شيئًا. كانت تشعرُ بأنَّها لا تستحقُّ شيئًا حتى حضنَهُ اليوميَّ لها قبل خروجِهِ لعملِهِ. كانت تشعرُ بأنَّها قد أضاعَتْ عليه سنينَ من عمرِهِ ولم تستطعْ أن تُعطيَهُ مقابلَها شيئًا، كانت ترى بأنَّها لم تَعُدْ تستحقُّه. لم يكن يدري بأنَّ كلَّ هذا يدورُ بعقلِها.

وصلَ إلى المستشفى وتلقَّى خبرَ وفاتِها، لم تستطعْ قدمُهُ حملَهُ، انهارَ على الأرضِ ولم يستطعْ حتى البكاءَ. ظلَّ وجهُهُ بدونِ أيِّ تعبيرٍ يُذكَر. ظلَّ جالسًا بلا حراكٍ يحاولُ عقلُهُ استيعابَ الخبرِ ولكنَّه يرفُض. لم يدرِ بقدميهِ وهي تحملهُ إلى بيتِها. وقفَ عندَ بابِ غرفتها مُحدِّقًا بها لبضعةِ ثوانٍ طويلةٍ مرَّت وكأنَّها دهرٌ، لم يكن يعلمْ هل عليه أن يدخُلَ أم لا..!! لم يستطعِ التوقفَ عن لومِ نفسِهِ عمَّا

حـدث.. خطـا بضـعَ خطـواتٍ للداخـلِ، ونظـرَ للحائـطِ خلـفَ المكتـب.. فوجـدهُ ممتلئًـا بالصـورِ التـي تجمعُهمـا سـويًّا.. نظـرَ إلى المكتـب ووجـدَ كُرَّاسـتَها الورديَّـةَ التي كانـت دائمًـا تكتـبُ فيـه.. كان دومًـا يتسـاءلُ كـم بهـا مـن أوراقٍ لتتحمَّـلَ كلَّ تلـك السـنينِ معهـا..

وجـدَ علبـةً شـفَّافةً – تقبـعُ على طـرفِ المكتـبِ، يُزيِّـنُ غطاءَهـا الـورودُ المطبوعـةُ ومكتـوبٌ فـي منتصفِهـا «حلـوى الذكريـات».. مـد يـده بتـردد، كأنّـه يخشـى أن يوقـظ ذكـرى نائمـة... مـدَّ يـدَهُ وأخـذَ العلبـةَ وجلـسَ يُحـدِّقُ بهـا.. وجدَهـا مملـوءةً بالحلـوى.. لـم يكـن يعلـمْ بأنَّهـا تهـوى جمعَ الحلـوى.. هوايـةٌ غريبـةٌ لشـخصٍ عـاشَ عمـرَهُ كلَّـهُ ممنوعًـا مـن الحلـوى بسـببِ مـرضِ السُّـكر..

فتـحَ العلبـةَ وأخـرجَ إحـدى الحلـوى وبـدأ فـي فتحِهـا، ولكنَّـه لـم يجـدْ بداخِلِهـا أيَّ حلـوى بـل وجـدَ قطعـةً مطويَّـةً مـن الـورقِ الملـوَّن.. شـدَّهُ الفضـولُ لفتحِهـا، وجـدَ بضعـةَ كلمـاتٍ مكتوبـةٍ بخطِّهـا:

«أول وردةٍ يجيبها لي عشان يصالحني بيها – ٦ يناير ١٩٩٩»

أخذَ واحدةً أخرى وفتحَها:

«أول مرة يقولي بحبك – ٢٥ مايو ١٩٩٨»

ثمَّ بدأ يفتحُ واحدةً تلو الأخرى:

«رحلةُ فرنسا – ١٨ ديسمبر ٢٠٠١»

«عربيتُنا الجديدة – ١٦ يونيو ٢٠٠٠»

«بيتنا جهز – ١٠ يونيو ١٩٩٩»

«عيدُ جوازنا الثاني – ٢٥ أغسطس ٢٠٠٢»

«مرَّت خمسُ سنينَ ونحن معًا – ٢٥ مايو ٢٠٠٣»

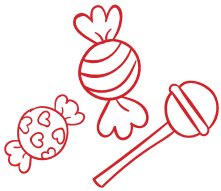

بـدا وكأنَّهـا تجمـعُ ذكرياتِهمـا فـي تلـك العلبـةِ.. «حلـوى الذكريـات» هـذا مـا كتبتـه على الغطـاءِ، أجمعَـتْ ذكرياتِهما داخـلَ أغلفـةِ الحلـوى.. لـم يشـعرْ بنفسِـهِ والدمـوعُ تتسـاقطُ مـن عينَيْـهِ لتحـرقَ وجهَـهُ، وكأنَّهـا تلومُـهُ على كلِّ مـا حـدث.. لـم يكـنْ يتصـوَّرُ أبـدًا أنَّ رحيلَـهُ سـيفعلُ بهـا هـذا.. لـم يُـدرِكْ كـم كانـت تعشَـقُهُ وتعيـشُ مـن أجلِـهِ.. بالرغـم أنَّهـا هـي التـي طلبـتِ الرحيـلَ إلَّا أنَّهـا لـم تقـدِرْ عليـه.. لـم يكـنْ يتخيَّـلُ أن تكـونَ ذكرياتُهمـا سـويًّا بهـذا الحجـمِ.. أحـبَّ كثيـرًا كيـف أغلفَـتْ ذكرياتِهمـا بأغلفـةِ الحلـوى.. وكأنَّهـا طفلـةٌ تُكافـئُ نفسَـها بحلـوى ذكرياتِهمـا..

ليتَـهُ لـم يتركُهـا.. ليتَـهُ لـم يذهـبْ عندمـا طلبـتْ منـه هـذا.. ظـلَّ يُعاتـبُ نفسَـهُ كثيـرًا ودموعُـهُ تتسـاقطُ سـريعًا مـن بيـن جفنَيْـهِ.. بـدأ صـوتُ بكائِـهِ يعلـو شـيئًا فشـيئًا تـاركًا مـع كلِّ دمعـةٍ تخـرجُ وجعًـا يعتصـرُ قلبَـهُ.. لـم يَعُـدْ يتخيَّـلُ أنَّهـا رحلـت.. رحلـتْ بتلـك البسـاطةِ.. تركتْـهُ بيـن النَّـدمِ والنَّحيـبِ.. يُحـادثُ صورتَهـا ويسـألُها أن تغفـرَ لـه..

تمت بحمد الله

أغسطس ٢٠١٧

تنبضُ عيوننا بما يمنع زماننا
بأن تنطق به قلوبنا

يوماً ما

على رغم الجو المشحون .. تبعا للظرف المرهون

مطرح ماعيونك بتكون .. بحلم شوفك يوماً ما

بكرا بيخلص هالكابوس .. وبدل الشمس بتضوي شموس

على ارض الوطن المحروس .. بحلم شوفك يوماً ما

مع أنه وضعك مهزوز .. مرات بحسك نرفوز

لازم تعقل ما بيجوز .. إذا مش هلأ يوماً ما

بعدك مهضوم ومحتال واللي متلك صاروا قلال

كيف ما برمت هالأحوال .. بيدي حبك يوماً ما

أغنية
يوماً ما

غناء
جوليا بطرس

كلمات
فادي الراعي

يوماً
ما

لم تكنِ الجلسةُ محبَّبةً لها، فقد كانت تنظرُ إلى ساعتِها كلَّ خمسِ دقائقٍ، وكأنَّها ترجُو الوقتَ ليمرَّ حتى تستطيعَ العودةَ إلى المنزل. لم تَعُدْ ترغبُ بأن تجلسَ وسطَ الناس، بالرغم من أنَّها تُحبُّهم، وهم أصدقاؤها منذُ الجامعة، ولكن لم يَعُدْ لديها هذا الشغفُ للجلوسِ معهم أو مع أيِّ أحدٍ آخر.

حالةُ المللِ تلك قد أصابتْها منذُ فترةٍ ولا تعلمُ ما السبب. لم يتغيَّرْ شيءٌ في حياتِها حتى تشعرَ بالملل، أم عدمُ التغيُّر هو ما أصابَها بالملل؟ لم تَعُدْ تذكُر متى كانت آخرَ مرَّةٍ ضحكتْ فيها من قلبِها. لم يَعُدْ شيءٌ يُبسطُها أو يُحزنُها. تمرُّ الأيامُ مثلَ بعضِها، لا جديدَ، فقط تكرارُ الأيامِ بدونِ تغييرٍ، بدونِ شيءٍ يُعطي لها طعمًا، كما لو أنَّ حياتَها دخلتْ آلةَ التصويرِ تُخرِجُ لها نفسَ الورقةِ كلَّ يومٍ، بلا تجديدٍ.

«فينك يا عم، ما حدش بيشوفك؟» أخرجَها من تفكيرِها صوتُ ممدوحٍ وهو يُصافحُ شخصًا ما.

«معلش، مشاغل والله.. ما أنتَ عارف، الشغل.»

«الله يعينك يا عم المدير، ما حدش قدك.»

«أعرِّفك بالشلة...»

بدأ ممدوحٌ يُعرِّفُ صديقَهُ بالجالسين إلى أن جاءَ دورُها في التعريف، والتقتْ أعينُهما.

هو: أنا حاسس إني شفتِك قبل كده.

هي: أنا كمان حاسة إننا اتقابلنا قبل كده.

هو: حاسس إني أعرفِك من زمان.

هي: حاسة إنك مش غريب.

- هو إحنا ممكن ما نروحش ونفضل قاعدين؟

- خايفة ياخدوا بالهم منَّا.

- طب وفيها إيه؟

- مش عارفة.

- لو مش حابة وجودي أنا –

- بالعكس، أقصد... خليك... أنا... أنا مش مضايقة.

- أومال خايفة ليه؟

- مش عارفة هنوصَل لفين.

- ولا أنا، بس المهم إننا مع بعض.

- مع بعض؟

- آه، حاسس إني عايزِك معايا.

- معاك؟

- معايا.

سادَ صمتُ النظراتِ بينهما، وصارت نظرةٌ طويلة، فقط نظرةٌ متواصلةٌ لا يشوبُها حتى ضوضاءُ المكانِ حولهما... نظراتٌ تُطيلُ الحديثَ في صمتٍ.

هو: بحبِّك.

هي: بسرعة كده؟

- بحبِّك.

- .....

- بحبِّك.

- وأنا –

- وإنتي إيه؟

- أنا... أنا... أنا كمان بحبِّك.

- أنا فرحان أوي.

- ليه أنا؟
- مـش عـارف، بـس حاسـس إنـك قريبـة منـي... حاسـس إنـي أعرفِـك مـن زمـان.
- مش اتسرعنا؟
- أنا ما صدقت لقيتك.
- هنقدر؟
- حتى لو ما قدرناش، بس تبقى ذكرى حلوة.
- كل الظروف ضدنا.
- عارف، بس ليه لا؟
- وليه نبدأ في حاجة عارفين نهايتها؟
- يمكن الظروف تتغير.
- تفتكر؟
- اللي خلّاها تتغير أول مرة يخليها تتغير تاني.
- ولو فضلت زي ما هي؟
- يبقى خليني ذكرى جواكي حلوة.
- لآخر العمر.
- لآخر الدنيا.
- هو ليه ما نقدرش؟
- عشان لا ظروفنا مساعدانا ولا الزمن سايبنا.
- بس ده ظلم.
- ومرغمين عليه.
- طب ما نحاول يمكن.
- نحاول، بس أهلك...
- مالهم؟
- عايزين يطمنوا عليكي.

- ما أنت هتشيلني في عيونك.
- هقفل عليكي رموشي وأخبيكي من الدنيا.
- طب فين المشكلة؟
- أهلك عايزين بيت واستقرار وأمان، وأنا ماعيش أي حاجة تطمنهم.
- طب إمتى هيبقى معاك؟
- يديكي ويديني طول العمر.
- شغلك على شغلي.
- ما يكفوش، في بيت وأكل ومصاريف وعيال ومدارس ولبس وأدوية وجامعة وهدايا وفسح.
- مش عايزة كل ده، أنا عايزاك إنتَ وبس.
- هكفيكي دلوقتي، بس هتحتاجي قدام كل حاجة.
- بس هتبقى معايا ساعتها ونحاول.
- ولو ما عرفناش؟
- مش عارفة.
- عايزهم يطلعوا شبهك.
- مين دول؟
- بناتنا.
- لا، أنا عايزة ولاد شبهك.
- لا، بنات وقمرات زيك.
- لا بقى، ولاد.
- طب خلاص نجيب دستة نص ولاد ونص بنات.
- ماشي.
- أحلامنا كبرت أوي.
- هتفضل أحلام كتير؟

- لـو كان بإيـدي كنـت حققتهـا كلهـا دلوقتـي، بـس إنـتِ عارفـة.

- عارفة، بس عايزاك.

- وأنا كمان محتاجِك جنبي أطمّن في حضنك.

- ما بقتش عارفة المشكلة فينا ولا في الزمن.

- في الزمن.

- تفتكر ممكن؟

- لو في زمن تاني.

- طب ما فيش حل؟

- بدوَّر مش لاقي.

- طب إيه اللي ناقصنا؟

- ناقصنا كتير... هنعيش فين؟ هنعلم ولادنا فين؟ وإيه؟ هنعالجهم فين وبكام؟ هنأكلهم كويس منين وازاي؟

- إنت ليه بتصعبها؟

- أنا ما بصعبهاش، أنا بواجه الواقع.

- أيوه بس...

- مـا فيـش بـس. أنـا مـش هسـتحمل أشـوفك محتاجـة حاجـة وأنـا مـش قـادر أجيبهـا لـك. مـش هسـتحمل أشـوف ابنـي تعبـان ومـش لاقـي لـه علاج.

- طب هنفضل بعيد كده كتير؟

- مش عارف، بس فعلاً خايف.

- من إيه؟

- من بكرة، لا يحرمني منك.

- أنا ممكن أموت فيها.

- بعد الشر عليكي، أنا مقدرش أعيش من غيرك.

- طب والعمل؟

- نتهي قبل ما نبتدي.

- يعني مش هيبقى فيه حكاية؟

- لا طبعًا فيه... حكايتنا هنحكيها.

- هنقول فيها إيه؟

- اتقابلنا، بس الزمن ما قبلش إنه يجمعنا.

- هتفتكرني؟

- لحد ما أموت، بس إنتِ ما تنسَينيش.

- ما قدرش أنساك.

لم يكن أيٌّ منهما قد نطقَ بكلمة، لكنّ العيونَ قالت كلَّ شيء، وتركَ كلٌّ منهما في الآخر صدى لم يُسمَع، بل أُحِسَّ.

«إنتِ إيه يا بنتي، سرحانة في إيه؟» أخرجها صوتُ صديقتِها من شرودِها في عينيهِ.

«إيه؟ بتقولي حاجة؟»

«بقولك يلا، هنمشي، عايزين نلحق معادنا.»

«هي الساعة كام؟» نظرتْ في ساعتِها ووجدتْها قد تخطَّت السادسةَ بقليل. «آه، معلش، ما خدتش بالي.»

«طب يلا عشان نلحق.»

نظرتْ له نظرةً أخيرةً تقولُ فيها: كان نفسي.

وردَّ على نظرتِها بنظرةٍ: وأنا أكتر... بس الظروف.

هي: يمكن في ظروف تانية.

قالَ لها مبتسمًا: «فرصة سعيدة إني شوفتِك.»

ردَّتْ هي بابتسامةٍ خافتةٍ: «أنا أسعد... مع السلامة.»

خرجتْ من المكانِ ولم تحاولِ النظرَ خلفَها، كان لقاءً

عابـرًا، ولكنـه مختلـف.

كانـت عينـاهُ تنبـضُ بـكلِّ شـيءٍ، تتكلَّـمُ وتقـولُ كلَّ شـيءٍ، ولكـن لـم تسـتطعْ أن تقـولَ شـيئًا أو تُجاريَـه.

كان محقًّا، لا تسمحُ الظروفُ بأن يكونا سويًّا.

كـم مـن أمنيـاتٍ تمنَّيناهـا وشـاءَ القـدرُ ألَّا تكتمـل... تتحـوَّلُ دعـواكَ إلى اللـه بـأن يمحـوَ مـن ذاكرتِـك مـا ظننـتَ أنَّـك بالفعـلِ ملكتَـهُ وحقَّقتَـهُ، أملًا بـأن تتحـوَّلَ دعـواكَ إلى اللـه بـأن يجمعَـكَ بمـا تمنَّيـتَ، فيُغيِّـرَ الزمـنَ على أملٍ أن تتلاقيـا، وتسـمعَ نبـضَ نظراتِـهِ يقـولُ لـك: للأبـد... سـتظلُّ معـي للأبـد.

تمت بحمد الله

أكتوبر ٢٠١٦

ساعات بنكتب كلام ما بيعبرش عنَّا في الوقت الحاضر،

بس بيعبر عنَّا في المستقبل زي ما إحنا بنتخيله.

خلف جدار القلب

دقّ جرسُ المُنَبِّهِ عدّةَ مرّاتٍ قبل أن تفيق، وتَمدّ أناملَها الرفيعةَ نحوه لتُسكته. لحظاتٌ تمرّ عليها وهي ما تزال بين الاستيقاظِ والنُّعاس، تُحاوِل أن تُوقِظَ عقلَها؛ ليبدأ عملَهُ وروتينَهُ اليومي... تمدّ قدميها من تحت الغطاءِ الدافئ وتُخرِجهما ببطء إلى برودةِ فصلِ الشتاء في بدايةِ شهرِ يناير، تبحثُ بأصابعِ قدميها عن خُفِّها لتحتمي به، تقف وتُحرِّك جِذعَها إلى اليمينِ وإلى اليسار كمحاولةٍ لتنشيطِ جسدِها الذي يصرخ ألَمًا طالبًا المزيدَ من النومِ من شدّة الإرهاق؛ فلم يكن يومُ أمسِ سهلًا حتى يتعافى جسدُها في أربعِ ساعاتِ نومٍ فقط...

تمشي بخطواتٍ متمايلةٍ وبطيئةٍ إلى الحمّام لتبدأ روتينَها اليوميّ بنظرةٍ سريعةٍ في المرآةِ أعلى الحوض، متحاشيةً لقاءَ عيني تلك السيّدة التي تظهرُ لها دائمًا في المرآة كلّما تختلسُ النظرَ لها. تعلمُ أنّ هذا الوجهَ غريبٌ عنها ولا ينتمي لها، عرفت منذ زمنٍ بعيد أنّ وجهَها قد تركها واختفى، وحلّ مكانَهُ ذاك الوجهُ الغريب، المليءُ بالتجاعيد، وعينانِ بنيّتانِ مليئتانِ بالجروح تختفيانِ تحت ذلك الشعرِ البنّي ذي اللّمعةِ الحمراء. لم تفهم لماذا رحل، أو لتكون صادقةً مع ضميرها؛ فهي تعلم الحقيقة، تعلم تمامًا لماذا رحل ولكنّها لا تعلم كيف تركته يرحلُ بكلّ تلك السهولة، ولم تُحاولْ ولا محاولةً واحدةً حتى لتمنعه، فقط تركته... تتوالى المشاهدُ أمام عينيها سريعًا فتغسلُ وجهَها بالماءِ لتُبعِدَ تلك التساؤلاتِ عن عقلها؛ لم

تعُد قادرةً على أن تُجادله منذ زمن... لطالما كان يُغلِبُها بكلامِه ومنطقِه؛ لذلك كانت تُسكته دومًا... تنتهي من الاغتسالِ والوضوء، فتخرجُ إلى الغرفة وتأخذُ سجّادةَ الصلاةِ وطرحتَها داكنةَ اللون وتُصلّي الفجرَ حاضرًا... انتهت من الصلاة، واتجهت نحو السرير وكشفت الغطاءَ عن وجهِه القمحيّ وطَبَعَتْ قبلةً على جَبينِه وهمسَتْ برِقّةٍ في أذنِهِ بأنّ عليه أن يستيقظ، فيهزّ هو رأسَه ويتمتم ببضعِ كلماتٍ وينقلبُ على الجانبِ الآخر. ترتسمُ ابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتيها وتقرّر أن تُعطيه قِسطًا أطولَ من النومِ والراحة. تنسحبُ من الغرفة وتُغلق البابَ خلفها بهدوءٍ حتى لا تُوقظه، تنزلُ الدَّرَج مُتّجهةً إلى المطبخ لتبدأ في تحضيرِ الإفطار قبل أن يستيقظَ البقيّةُ مطالبينَ بالطعام... يمكن لأيّ شخصٍ أن يلمسَ سعادتَها وهي تُعدّ الإفطارَ من أجلهم؛ فهي تنعكسُ على رائحةِ الطعام الذي تُعِدّه مع تسرّبِ أشعّةِ الشمسِ من بينِ ستائرِ مطبخها الزرقاءِ...

تبدأ في تحضيرِ المائدة وتضعُ عليها الطعام، تفتحُ الستائرَ لتسمحَ بدخولِ قدرٍ أكبرَ من أشعّةِ الشمسِ إلى المنزل، ثم تصعدُ الدَّرَج مرّةً أخرى لتبدأ في عمليّةِ إيقاظ النائمين. تتّجه نحو غرفةِ كريم، تفتحُ ستائرَها والنافذةَ وهي تُنادي عليه، فيعترضُ واضعًا الوسادةَ فوق رأسِه، ولكنّها تتّجه نحوه وتشدّ الوسادةَ عن وجهِه وتبدأ في زغزغته وهي تُخبره بأنّ لديه اليوم محاضرةً مهمّةً بالجامعة وعليه أن يستيقظَ ليلحقَ بها. يحاولُ أن يُجادلَها ولكنّها لا تتركه إلّا وهو في

طريقِـه إلى الحمّـام... تتركُـه وتذهـب إلى غرفـةِ سـلمى لتوقظَها ولكنّها تعلم بأنّها ستجدُها مستيقظة؛ فهي أيضًا تستيقظ مبكّرًا لترتبَ حاجيّاتها، ولكنّها تمرُّ عليها لتُبادلَها تحيّـةَ الصبـاح... تتّجـه نحـو الغرفـة لتُوقِظـه، تجلـسُ بجانبِـه، وتطبـعُ بضـعَ قُـبلاتٍ على وجهِـه وتُداعبـه بأصابعِها كمحاولةٍ لإيقاظِه، وتهمسُ في أذنِه بأنّ عليه أن يستيقظ. يتذمّر قليلًا ثم يُبعِد الغطاءَ عنه ويجلس، فتمرّرُ أصابعَها في شعرِه وتضعُ قبلةً على جبينِه وهي تبتسمُ ثم تخرج...

قف بالمطبخ تعدّ القهوةَ وفطور، وتضعُهم على المائدة وهي تنتظرُ نزولَهم من أعلى. دقائقُ قليلةٌ ويبدؤون في النزول جميعًا، يجلسون على المائدة في أماكنِهم المحفوظة: هو على رأسِها، والأولادُ على يمينِه، وتجلسُ هي على يسارِه... كم تعشقُ تلك اللحظاتِ القليلة التي يجتمعون فيها كلَّ يوم؛ برغم قِصَرها وقلّتِها، ولكنّها تشعر بأنّها حياةٌ كاملة... ينتهون من الإفطار، فيضعُ الأولادُ على جبينها القُبلاتِ ويحملون حقائبَهم ويخرجون، يسألُها هو إذا كانت تريدُ شيئًا قبل أن يذهب، فتردُّ شاكرةً وهي تبدأ في إزالةِ آثار عدوانِ الإفطار، ويخرجُ هو بدون كلمةٍ أخرى لتصلَ صوتُ تنهُّدِها إلى مسامعِه... في تمامِ الثامنة، تقفُ أمام المنزل، تنتظر أن ينزلَ سائقُها الخاصُّ ليحملَ منها حقيبتَها ويفتحَ لها بابَ السيّارة؛ كم تمقتُ القيادةَ في تلك الشوارعِ المزدحمة، لذلك اضطُرّت أن تجلبَ من يقودُ لها السيّارة... خلال طريقِها اليومي تفكّر في تلك الوجوهِ التي تُقابلُها كلَّ

يـوم، تـرى كـم هـي بيـن التعيسـةِ والشـقية، تجـد وجوهًـا تعكـسُ آلامَ العالـمِ كلَّـه فـي وجـهٍ واحـد، لا تعـرفُ مـن سـببُ تلـك التعاسـة، فنـادرًا مـا رأت شـخصًا يبتسـم، وإن وُجـد فَيكـونُ طـفلًا لـم يُـدرِك بعـدُ آلامَ الدنيـا ويـذوق مرارتَهـا، وتـذوبُ هـي الأخـرى فـي زحـامِ الوجـوهِ والطريـق، وتُفيـقُ على صـوتِ سائقِها وهـو يُبلِغُها أنّهـم وصلـوا إلى مقـرِّ الشـركة ويفتـحُ لهـا البـاب.

تحمـلُ حقيبتَهـا وتتّجـه نحـو بـابِ هـذا المبنـى العـملاق، وتتذكّـرُ عشـرينَ عامًـا مـن الصـراعِ حتـى تبقـى تلـك الشـركةُ قائمـة: صـراعٌ مـع الجميـع؛ السياسـيّون وحيتـانُ السـوق، تُصـارعُ الحكومـةَ وتُصـارعُ أعداءَهـا، تُصـارعُ حتـى نفسَـها؛ فكـم مـن مـرّةٍ أرادت أن تستسـلمَ لليـأس، ولكنّهـا كانـت تعـودُ وتأبـى أن تستسـلم؛ كـم مـن مـرّةٍ وبّخت نفسَـها عندما ضَعُفت، فهي تعلم أنّه ليس هناك سبيلٌ للاستسلام، بعد كلّ ما فعلتْه، فقد دخلت طريقَ اللاعـودة، وقـد خسـرت الكثيـر فيـه...

نعم، خسرت كثيـرًا مـن أجـل إنشاء هـذا المجمّـعِ الصناعيّ الضخـم، أكبـرِ مجمّـعٍ لتدويـرِ المخلفـاتِ فـي الشـرقِ الأوسـط. خسـرت الكثيـر، خسـرت حياتَهـا، خسـرت وقتَهـا وأحلامَهـا، خسـرت أصدقاءَهـا، وخسـرت حبيبَهـا، خسـرته، أجـل؛ فهـي لـم تجـد الوقـتَ لتكـون معـه، لـم تجـد حتـى الوقـتَ لتصارحَـه بحبّهـا، هـو أيضًـا لـم يجدْهـا حتـى يبـوحَ لهـا بحبّـه... كانـت دائمًـا منشـغلةً بالمشروعاتِ والمصانـع، كانـت دائمًـا بيـن كتبِهـا وأبحاثِهـا، لم تُعطِهِ فرصـةً ليجدَهـا، ولكـن بالرغـم مـن كلِّ ذلـك لـم يسـتطيعا أن يبتعـدا عـن

بعضِهما... فبالرغم من زواجِهِ من غيرِها فقد ظلّ معها، بل شاركها عملَها وشركتَها، لكنّه لم يكن يعلم بأنّ وجودَه أمامها مع زوجتِه يُؤلمها أكثر من بُعدِه؛ فحنينُها له ما زال داخلَها، حتى قلبُها كما هو، وكأنّ الأيامَ والسنينَ لم تمرّ عليه...

يُخرجُها صوتُ سكرتيرتِها الخاصّةِ من ذكرياتها، لتجدَ نفسَها وقد وصلت إلى مكتبِها، ومع بدء العملِ اليوميّ تنسى كلَّ شيءٍ آخر، تنسى من تكون خارجَ أسوارِ هذا المبنى، تذكر فقط أنّ عليها أن تديرَ كلَّ هذا، وأن تعملَ بلا توقّفٍ وألّا تُخطِئ؛ فليس في هذا العالمِ سبيلٌ للخطأ... يمرُّ عملُها كالروتينِ اليومي: تُقابلُ ذاك وتتعاملُ مع ذاك، تتفاوضُ هنا وتُساومُ هناك، تدفعُ لهذا وتأخذُ من ذاك، حتى يأتي موعدُ راحةِ الغداء، فتطلبُ قهوتَها المعتادة، وتُشعلُ سيجارتَها، وهي تحاولُ أن تتذكّر متى كانت أوّلَ مرّةٍ تشربُ فيها سيجارة، لكنّها لا تذكر سوى أنّها كانت تمقتُ رائحةَ الدخانِ بسبب حساسيّةِ صدرِها، ولكنّها لا تعلم كيف تغلّبت على حساسيتها، ولم تكتفِ برائحةِ دخانِها ولكنّها شربت السيجارةَ كاملة رغم كل التحذيرات من الأطباء لكنها لم تهتم، أو لم تعد تهتم...

تُفيقُ من أفكارِها لتجدَ أنّ نصفَ وقتِ الراحةِ قد انتهى، فتقرّر أن تنزلَ إلى كافيتيرا المصنع لتأكلَ شيئًا ثم تواصلَ عملَها... تظلُّ تعملُ بلا توقّفٍ وبدون أن يظهرَ عليها التعب، ولم تُلاحظ أنّها لم تعُد تذكرُ معنى كلمةِ راحة؛ فلقد أخرجتْها من قاموسِها منذُ سنواتٍ

كفّت هي عن عدّها... لم تشعرْ كم مضتِ السنون، عشرون عامًا قد مضت عليها بدون أن تدري، عشرون عامًا من الصمت، من الوحدة؛ لم تجدْ من تُحدّثُهُ برغمِ وجودِ الكثير حولَها، ولكنّها لم تجدْ من يفهمُها بعد، لم تجدْ من يعرفُ كيف يُخرجُها من حزنِها...

«يا دكتورة...!!» أخرجها صوتُ شريكِها مصطفى من غيبوبتِها في صندوقِ الماضي... فنظرت له وابتسمت وهزّت رأسَها... «أنا بنادي عليكي بقالي فترة وإنتي مش معايا خالص...» مصطفى في أواخرِ الأربعينيّات، طويلُ القامةِ ذو جسدٍ رياضيّ واضح، حادُّ الملامح، يلمعُ شعرُهُ الأسودُ الذي تناثرت به بعضُ الخصلاتِ البيضاء...

«معلش يا باشمهندس، سَرَحت شوية...» ردّت عليه وهي تحاول أن تُبعد عن رأسِها تلك الأفكارَ التي سيطرت عليها...

«مالك يا دكتورة، بقالك فترة كده مش طبيعية...»

«مليش؛ إنت عارف بس الشغل، والمناقصة اللي داخلين عليها كبيرة ومحتاجة تركيز وحسابات كتير...»

«إيه يا دكتورة، إنتي هتضحكي عليّا ولا إيه؟ وبعدين إحنا نعرف بعض من أكتر من خمستاشر سنة... يعني عِجنِك وخَبزِك.. غير إننا كمان صحاب. فيكي حاجة مش مظبوطة...»

«أبدًا يا بشمهندس، مفيش...»

«لأ، فيه يا دكتورة. إنتي من ساعة الحادثة وإنتي فيكي حاجة. أنا بعتبر نفسي أخ أكتر من صديق قريب؛ في

حاجة في البيت حصلت...؟!»

نظرت له للحظات، ثم عادت لها تلك الأفكارُ مرّةً أخرى مع كلماتِه. لم تدرِ بأن قد مضت عشرةُ أعوامٍ على زواجِها، لم تنجب، لأنّها عرفت بعد زواجِها بعامين بأنّها لا تنجب . لم يكن الأمرُ مهمًّا لها في البداية، فهي تعلم بأنّ عادل - زوجها - لا يُحبّها؛ فقد كان زواجُه منها فقط لأنّه كان يحتاجُ لمن يهتمُّ بأولادِه بعد وفاةِ زوجتِه الأولى. عرفتْ هي هذا، ولم تهتمّ لأنّها أيضًا لا تُحبّه. لن تُنكر بأنّها مُعجبةٌ بشخصيّتِه القويّة وطيبةِ قلبِه، ولن تُنكر أيضًا محاولاتِها العديدة في جذبِ انتباهِه لها؛ فهي بالرغم من كلّ شيء ما زالت امرأةً تريدُ من يهتمُّ بها، ولكن منذ حادثةِ السيّارة وهي لا تستطيعُ أن تنظرَ في عينيه...

«لأ... مفيش، هيحصل إيه يعني...!» أجابته وهي تحاول ألّا تنظرَ إليه...

«هو أنا برضه مش مصدّق، بس هعدّيها. ممكن بعد الشغل ناخد فنجان قهوة في أيّ حتّة ونتكلم...؟»

«هنتكلم في إيه بس يا مصطفى...!!»

«في اللي إنتي عايزة تتكلّمي فيه...» ابتسم لها وهو يقفُ وأكمل قائلًا: «هعدّي عليكي خمسة ونصّ، نروح نقعد في أيّ حتّة...» ورحل قبل أن يدعَ لها مجالًا لكي ترفضَ أو تقبل...

قامت بدورِها هي الأخرى متّجهةً نحو مكتبِها؛ لتنهي الاجتماعَ الذي ينتظرُها من أجل تلك الصفقةِ التي ستدخلُها خلال يومين، ولم تعرف هل حقًّا باستطاعتِها

أن تُحاربَ فيها، أم أنّ عليها أن تنسحبَ من البداية وألّا تدخلَ حربًا أخرى...

*****

«تشربي إيه...؟!»

«قهوة مظبوطة.»

«مش كتير القهوة كده؟» قالها مصطفى وهو ينادي على الجرسون...

«تحت أمر حضرتك يا فندم، أؤمر.»

«اتنين ليمون بالنعناع.»

«حاضر يا فندم.»

«أنا طلبت قهوة على فكرة، من باب العلم بالشيء يعني.» وهي تنظرُ له باستغراب...

«وأنا هشربِك ليمون– عندِك مانع...؟!» قالها مصطفى وهو يبتسم. وهزّت هي رأسَها بـ«لا» وهي تبتسم له، فأكمل: «مالك بقى يا سِتّي...؟!»

«ما قلتلك، مليش.»

«على أساس إن أنا هصدّق يعني! بصّي يا دكتورة، إحنا نعرف بعض من زمان، فبلاش الجو ده. قولي لي مالكِ، اعتبريني صديق، ولو مش حابة تحكي لحدّ اعتبري نفسك بتكلّميكي–»

«بـ إيه...؟!»

«بتكلّميكي... يعني قاعدة مع نفسك كده وتاخدي وتدي معاها.»

«يِخربيت شيطانك يا مصطفى! عليك مصطلحات.»

«هو إنتِ شفتي حاجة! لما تقعدي مع الولاد هتلاقيهم

بيقولوا كلام غريب والله.»

«فعلاً، مصطلحاتهم بقت غريبة: فكّك، وأَرْش، وفاكس... متفهمش همّا بيقولوا إيه.»

جاء الجرسون ووضع الليمون أمامها ثم وضع الكأس الآخر أمام مصطفى، وسأل إن كانوا يريدون شيئًا آخر، فشكره مصطفى... أخذت هي كأسَها وشربت بعضًا منه وأعادتْه إلى المائدة أمامها في هدوء. ظلّا صامتين فترةً عن الكلام، ولكن أعينُهما كانت تتحدث؛ فعينا مصطفى كانت تنتظرُها وترجوها لتتحدث، وأمّا عيناها فكانت تحاولُ دائمًا أن تهربَ من سؤالِ عينيه... فهي لم تعرف من أين تبدأ، ولم تعرف هل عليها أن تحكيَ بعد كلّ سنينِ الصمت تلك. وقف مصطفى بجانبها كثيرًا طوال الخمسةَ عشرَ عامًا الأخيرة؛ كان حقًّا خيرَ صديقٍ لها، سمعَها كثيرًا وحلَّ العديدَ من المشاكلِ معها، ولكن لم تكن تعرف هل بإمكانها أن تُحدّثه أم لا. هي تثقُ به كثيرًا وتأتمنُه على حياتِها، ولكنّها لم تجدْ ما تُجيبُه به؛ فهي حقًّا لم تعرف ما الجديد. لماذا شعرت بتغيّرٍ في نفسيتها من بعد الحادثة؟ فهي لم تُضِف شيئًا؛ فهي ما زالت لا تنجبُ في كلا الحالتين. ربّما هي تشعر بأنّ آخر جزءٍ أنثويٍّ بها قد فقدته؛ ربّما بعد الحادثة التي بسببِها فقدت رحمَها، بعد التشوّه الذي أحدثه بها السورُ الحديديُّ الذي وقعت عليه وغرز بداخِلِها بعد أن صدمتْها تلك العربةُ التي لم يعرفوا حتى الآن من كان وراءها، وظلت أسابيع في العناية المركزة، بين عمليات وجراحات ومحاولات إنقاذ، رأت

الموت كل يوم، وعلى الرغم من ذلك لم تخاف لكنها لم تستوعب لماذا ظلت حية؟ ولكن الجميع قد اتّفق على أنّ الحادثة مُدبَّرة من أجل عدم إكمال الصفقة التي هي على وشك إمضائها. لم يختلف الأمر كثيرًا عن قبل الحادثة؛ فما الذي غيّرها هكذا...

«يا دكتورة...!!» أخرجها صوتُ مصطفى مرّةً أخرى من أفكارِها. «أهو السرحان ده عايز يبقى كلام يتقال مش يتفكّر فيه.»

«إنت عايز تعرف إيه يا مصطفى...؟!»

«عايز أعرف مالِك– ومتقوليش «مفيش»؛ لأن كلّنا حاسّين إن من بعد الحادثة فيكي حاجة متغيّرة.»

«تفتكر اللي حصل فيها ما يغيّرش...!!» صمت مصطفى مع سؤالِها لبضعِ ثوانٍ قبل أن يُجيبها...

«بُصّي، مش هقولّك إنه عادي ومحصلش حاجة، وإنّه مش أوّل مرّة يحصل كده، وإنك متعوّدة على الرصاص والتهديدات والجو ده، بالذات بعد ما دخلنا في موضوع السلاح مع الجيش... وعارف إن اللي حصل بسبب الحادثة صعب، بس مش هتقف عليه الدنيا.» ضحكت هي بصوتٍ عالٍ، فأكمل حديثَهُ وعلاماتُ الحيرةِ تملأ وجهَه: «دكتورة، إنتِ دايمًا اللي كنتِ بتخلّينا نكمّل لما نحسّ بإحباط. ما ينفعش دلوقتي إنتِ اللي تُحبَطي وتوقفي... لأن كلّنا هنقف معاكي؛ من غيرك محدّش فينا هيكمّل. إنتِ الحاجة اللي مخلّيانا نكمّل ونبيع الدنيا وما نهتمّش بأيّ حاجة؛ إنتِ حماسنا.»

«بس أنا بشر، ومن حقي إن ييجي الوقت اللي أكون

مُحبَطة فيه... ولا إيه؟!»

«معاكي، بس مهما كان، ما تخليش الإحباط ده يأثّر عليكي. جرَى إيه يا دكتورة؟ هو أنا اللي هقولّك تعملي إيه؟ ده إنتِ اللي كنتِ بتقوليلنا! جرَى إيه؟ هو الزمن اتغيّر؟»

«شُفتِ بقى يا درش؟ أهو جه اليوم اللي إنت تنصحني فيه.»

«وليا الشرف! وما تنسيش إني متجوّز أجدع دكتورة نفسية في مصر؛ أي نعم هي بتطلع اللي بتشوفه مع العيانين عليّا، بس كله فِدى الوطن، ولا إيه...» ابتسمت هي على جملتِه– وهي في الأساس جملتُها التي دائمًا تقولُها لتحمّسهم بها– فابتسم هو أيضًا وأكمل: «أيوه والله، اضحكي كده وفُوقي.»

ضحكت هي وهزّت رأسَها بأنّها ستفعل، وعادا إلى الصمت مرةً أخرى. وشربت هي نصفَ كأسِها، وأشعل هو سيجارةً وبدأ في تدخينِها ببطء... استنشقت هي هواءَ سيجارتِه، ولم تستجبْ لرغبتِها في إشعالِ واحدةٍ لنفسِها... مرّت دقائقُ طويلةٌ وهما لا يتحدّثان، ولكن بين حينٍ وآخر تأتي ابتسامةٌ من أحدِهما عندما تلتقي عيناهم، ويردُّ الآخر عليها بابتسامةٍ أخرى، إلى أن كسر هو الصمتَ مرّةً أخرى...

«أنا مستنّي.»

«مستنّي إيه...؟!»

«مستنّي تقولي مالِك... وشكلنا كده هنفضل طول الليل نقول نفس الجملتين دول. خلّصي، أنا ورايَا

مجنونـة غيـرِك فـي البيـت.»

«مجنونة؟ حرام عليك يا ابني، دي طيبة.»

«طيبة! والنبي إنتِ اللي طيبة.»

«وهـي عملـت لـك إيـه؟ مـا هـي شـايلة البيـت والعيـال مـع شغلها ومِش مخلّياك محتـاج حاجـة؛ اللـي بتحتاجـه بتلاقيـه.»

«أيـوه، بـس كلّ ده كـوم والعيانيـن بتوعها كـوم تاني! كلّ يـوم ترجـع تحكـي لـي لغايـة مـا خلتني أنـا نفسـي حاسـس إنّي عيـان.»

«يـا سـيدي بتِشـكي لـك. يعني إنـت مـش بتحكـي لهـا عـن الشـغل؟»

«أيوه، بس شغلنا مفيهوش مجانين.»

«يا سيدي... اهي بتفرّغ اللي جواها عشان ما تتجنّنش.»

«بقولّـك إيـه، مـا تخدينيـش فـي دوكـة، ونتكلّـم عـن نهلـة ونسـى إحنـا جاييـن ليـه... أنـا عارفِـك سـيّد مَـن يتـوه الموضـوع لـو مـش عايـز يتكلّـم فيـه.»

«أديك قلتها.»

«أديـك– إنـتِ اللـي قلتيهـا.» قالهـا وعلى وجهـه علامـاتُ النصـر.

«قلت إيه...!!»

«مش عايزة تتكلّمي؛ يبقى في حاجة مضايقاكي.»

«آه يـا مصطفـى، مـش هخلُـص منـك. عارفـاك، لمـا بتحطّ حاجـة فـي دماغـك مش بتسـيبها بسـهولة.»

«طـب كويـس إنـك عارفـة. قولـي بقـى عشـان نـروح النهـاردة.»

«إنت عايز تعرف إيه؟»

«عايـز أعـرف إيـه اللـي مضايقِـك... يعنـي لو بسـبب الحادثة، وفـي حاجـة بينِـك وبين عـادل... أنـا ممكن—»

«ممكـن إيـه! إنـت متخيّل إن الموضـوع فَرَق أصلًا بالنسـبة لعادل؟»

«طيب أُمال إيه بقى...!!»

«يا بني، إنت مش فاهم... وما ينفعش أفهمك.»

«ليـه بقـى مـا ينفعـش تفهمينـي؟ هفهـم بسـرعة، مـش هتعبـك، مـا تقلقيـش.»

«مش الفكرة، بس ما ينفعش.»

«دكتـورة، أنـا وعـادل إخـوات؛ يعنـي لـو فـي حاجـة أنـا ممكـن—»

«مفيـش حاجـة بينـي وبيـن عـادل، صدّقنـي. الموضـوع مـش زي مـا إنـت فاهـم.»

«أُمال إيه الموضوع...؟!»

«الفكـرة بـس إنّـي كنـت فـي غيبوبـة، والحادثـة فوقّتنـي... بـس للأسـف اكتشـفت إنّـي فوقّـت متأخّـر قـوي.»

«إزّاي يعني...؟!»

«فـي سـبيل طريـق اختـرتُ إنّـي أمشـيه... خسـرت حاجـات كتيـر قـوي.»

«مش فاهمِك.»

«يعنـي عشـان الشـركة اللـي إنـت شـريك فيهـا دي تقـف – أنـا ضيّعـت عشـرين سـنة مـن عمـري... وفـي الآخـر اكتشـفت إنّـي مـا كسـبتش حاجـة؛ بالعكـس، أنـا خسـرت كل حاجـة.»

«إنـتِ اللـي بتقولـي الـكلام ده يـا دكتـورة! ده إنـتِ أكتـر واحـدة عملـت إنجـازات.»

«إنجـازات كانـت فايـدة لنـاس غيـري، أنـا مـا اسـتفدتش منهـا حاجـة.»

«إزّاي بقى...؟!»

«تقـدر تقولـي أنـا كسـبت إيـه مـن الإنجـازات اللـي إنـت بتقـول عليهـا دي؟»

«إنـتِ أوّل شـخص يعمـل مجمّـع صناعـي بالحجـم ده فـي الشـرق الأوسـط وبيحـارب أسـواق الغـرب، وأبحاثِـك فـي الاقتصـاد عملـت كتيـر واسـتفادت منهـا دول كتيـر، غيـر المكاسـب الماديّـة اللـي حقّقناهـا فـي سـنين قليلـة... غيـر كل ده وده—» اقتـرب منهـا قلـيلًا وأخفـض صوتَـه ثـم أكمـل: «إنـتِ ناسـية إننـا كمـان بقينـا مسـؤولين عـن تسـليح الجيـش بصفقـات أسـلحة – مخلّيـة اللـي بالـي بالـك يتجنّنـوا... ولا نسـيتي؟»

«وقُصّاد كل ده – أنا كسبت إيه؟ ولا حاجة.»

«إزّاي بقـى؟! إنـتِ بقـى اسـمِك أشـهر مـن النـار على العلـم فـي كلّ العالـم.»

«بـس ده مـش كفايـة؛ عمـري مـا كنـت بـدوّر على الشـهرة. أنـا كلّ اللـي كنـت عايـزاه إنّـي أعمـل الشـركة وأفيـد، بـس للأسـف خسـرت كتيـر قـوي قُصّـاد كل ده.»

«خسرتي إيه يا دكتورة... فهمّيني.»

«خسـرت كل حاجـة... خسـرت قعدتـي وسـط أهلـي، وسـط صحابـي... خسـرت خروجـة مـع أعـزّ صحابـي تفضّـل ليـا ذكـرى حلـوة فـي صـورة؛ لمـا أشـوفها أفتكـر أيـام زمـان...

خسرت إنّي أكون زوجة لراجل بيحبّني وبحبّه—»

«عادل بيحبّك— إنتِ ما خسرتيش دي.»

«عادل...!!» قالتها وعلى فمِها ارتسمت ابتسامةُ استهزاءٍ بكلامِه، وأكملت: «عادل عمره ما حبّني؛ ما تقنعنيش إنّه ما حكالكش. إنتوا متربّيين سوا وإخوات. عادل اتجوّزني عشان عايز حدّ ياخد باله من ولاده بعد مراته الأُولى ما ماتت، وطبعًا كان لازم الولاد يحبّوها قبل هي ما تحبّهم.»

«بتقولي إيه بس يا دكتورة؟!»

«بقولّك الحقيقة يا مصطفى... عادل عمره ما حبّني. ومعاه خسرت إنّي أكون زوجة لراجل بيحبّني، وخسرت كمان إنّي أكون أمّ لطفل يبقى دمه من دمي.»

«دي حاجة بتاعة ربنا— مش بإيدِك ولا بإيد حدّ.»

«أيوه، بس الدكاترة قالوا إنّي كان ممكن أعمل عملية وأخلّف... بس أنا ما حاولتش، ولا لقيت حدّ يشجّعني إنّي أحاول.»

«دكتورة أنا—»

«إنت إيه يا مصطفى؟! مش إنت عايز تعرف الحقيقة وتعرف مالي؟! أهو بقولّك مالي – بقولّك إنّي فوقت من حلم على كابوس، وللأسف مفيش طريقة عشان أصحى منه، لأني أصلًا صاحية ومفتّحة – مفتّحة قوي كمان.» صمتت قليلًا وشربت آخر ما تبقّى في كأسها ثم أكملت: «اكتشفت إنّي خسرت أقرب الناس ليا، وخسرت الشخص اللي حبّيته بجدّ – بسبب الخوف.»

«إنتِ حبّيتي قبل كده؟!» قالها مصطفى باستغرابٍ

شـديد...

«حبّيـت– وقصّـة حـبّ طويلـة كمـان. طبعًـا إنـت مـش مصـدّق إن اللـي زيّـي يعـرف يحـبّ.»

«لا – مقصـدش والله... أنـا بـس... ولا حاجـة... طـب هـو إنتـوا سِبتوا بعـض ليـه؟»

«إحنا مكنّاش مع بعض عشان نسيبها أصلًا.»

«مش فاهم.»

«محـدّش فينـا قـال للتانـي إنّـه بيحبّـه... أنـا مكنّـش عنـدي وقـت، وهـو مكنّـش لاقينـي أصلًا عشـان يقولـي. أنـا ضيّعـت عمـري كلـه وسـط الكتـب والأبحـاث ونِسـيت النـاس... لدرجـة إنّـي نسـيت أفضّـي نفسـي عشـان أقـول للـي بحبّـه إنّـي بحبّـه.»

«وهو ما قالّكيش ليه؟»

«عشـان مـا لاقانيـش... أو فـي الحقيقـة أنـا اللـي كنـت بهـرب منـه. خوفـي مـن تِكـرار اللـي حصـل مـع ماما يحصل معايـا – خفـت إنّـه يعمـل زي بابـا.»

«اللي هو...؟!»

«بابـا أقنـع ماما إنّـه هيقـف جنبهـا وهيسـيبها تشـتغل وتحقّـق أحلامهـا وتبقـى صحفيـة كبيـرة... بـس بعـد الجواز فـرض سـيطرتُه ومنعهـا مـن الشـغل – ولـو حتـى مـن البيـت– خلاهـا تنسـى أحلامهـا وتندفـن بيـن المواعيـن والعيـال والبيـت والطبيـخ. نسـيت حتـى إزّاي بتكتـب مقالـة.»

«إنتِ حسّيتي ده فيه...؟!»

«وهي ماما كانت حسّته في بابا...!!»

«صوابعِك مش زي بعض.»

«والبطيخة بتعرفها لما تفتحها.» ضحك مصطفى عاليًا مع جملتِها الأخيرة، فضحكت بدورها...

«هي من جهة بطيخة – فهي بطيخة... بس كان لازم تتكلّمي معاه تفهمي منه هو هيبقى إزّاي.»

«خوفي كان أكبر منّي.»

«مش متخيّل إنّك ممكن تخافي من حاجة.»

«ما يغرّكش شجيع السيما اللي أنا عاملَاه ده مع شوية التعابين اللي في السوق– لا، أنا خوافة... خوافة قوي كمان.»

«بس مهما كان – حتى لو كنتِ رفضتيه – في ناس كتير اتقدّموا قبل ما تتجوّزي عادل.»

«دي حقيقة، بس ما اتقدّموش لشخصي؛ كلّهم كانوا عايزين يبقوا متجوّزين «الدكتورة منى السويسي»– عايزين الشهرة والضوء والنفوذ – متخيّلين إنّي هَبلة وهيضحكوا عليّا بسهولة.»

«وليه قبلتي عادل...؟!»

«لأنه مش محتاج فلوس أو نفوذ... ولأني حبّيت الولاد جدًّا... وكمان عشان أخلّص من زَنّ المجتمع اللي ما بيصدّق يلاقي واحدة مش متجوّزة أو مطلّقة ويشتغل عليها... وبصراحة أنا معجبة بعادل – بشخصيته وطيبة قلبه – شخص نظيف لسه محدّش عرف يلوّثه.»

عاد الصمتُ يُخيّمُ عليهما مرّةً أخرى، وجاء الجرسون يسأل إن كانا يريدان شيئًا آخر، فطلبت هي قهوةً مضبوطة، بينما هو اكتفى بما شربه... رحل الجرسون

وتـرك الصمـتَ ثالثَهمـا، لـم يتكلّمـا ولـم تلتـقِ عيناهـم حتى. لم يعرف ماذا يقول لها؛ فهو لم يتوقّع ما قالتْه، ولـم يفهـم كيـف لـم يُخبـرْه عـادل بذلـك مـن قبـل؛ فهـو مـن عرّفهما ببعضهما، وعـادل يعلـم تمامًا علاقتَه بمُنى، وكان عليه أن يُخبره... أمّا من جانبِها فهي لم تعرف هل حقًّا هـذا مـا يُضايقها؟ هـل حقًّـا لا تقـدر على الـخلاصِ مـن ذلـك الكابـوس؟ وإلى متـى سـيطول... أخرجهـم مـن أفكارِهـم الجرسـون عندمـا أتـى حـاملًا قهوتهـا، وضعهـا أمامهـا ورحـلَ للمـرة الرابعـة...

«ده إنتِ كنتِ مِعبّيَة وشايلة بَقَى!» قالها مصطفى وهو يبتسم من جانبِ فمِه...

«خَلـفَ جـدارِ القلـب، يكمـنُ الكثيـرُ مـن الـكلام الـذي لـم يسـتطع أن يخـرجَ حينمـا أحسسـتُه، فيظـلُّ هنـاك كامنًـا، أملًا أن يخـرجَ ويبـوحَ بمـا داخلـه يومًـا.»

«خلـف جـدار القلـب؟! إيـه الـحلاوة دي! مـا كدبـوش لمـا قالـوا عليكـي شـاعرة...» ضحكـت، وضحـك هـو أيضًـا، ثـم أكمـل: «أنـا سـمعت إنّـك كنتـي بتكتبـي زمـان شـعر – ده بجـد؟!» هـزّت رأسَـها بنعـم، وشـربت بعضًـا مـن قهوتِهـا... «كنـت بارتـاح لمـا بكتـب – يعنـي نـوعٌ مـن تفريـغِ شُـحنة غضـب جـواك؛ مـش قـادر تُطلعهـا بالـكلام فبتكتبهـا...»

«طب وبطّلتي ليه...؟!»

«ما بقاش عندي وقت...»

«طب وبتفرّغي شحنة الغضب في إيه بقى دلوقتي...؟»

«للأسـف بقالـي كتيـر قـوي مـا فرّغتُهـاش – ويمكـن ده اللـي وصلنـي للـي أنـا فيـه دلوقتـي.»

«طب ما تجربي تكتبي تاني... أو جربي تتكلّمي.»

«ما أنا بتكلّم أهو.»

«لا... أنا أقصد مع عادل. مش يمكن لو قلتيله الحقيقة هو يـ—»

«لأ طبعًا؛ ما ينفعش.»

«ليه؟ مش هو جوزِك؟ لازم يعرف اللي جواكي.»

«في حاجات ما ينفعش إنها تتقال – حاجات بتتِحسّ بس – ولو ما اتحسّتش يبقى مفيش داعي إننا نقولها أصلًا.»

«يعني إنتِ هتفضلي كده؟ مضايقة وسرحانة ومش عارفة تشوفي شغلكِ ولا حياتك؟»

«عن شغلي – فأنا ما قصّرتش فيه. أمّا عن حياتي – فأنا خلاص خسرتُها؛ بقت كابوس مش عارفة أخلُص منه ولا عارفة هيخلّص إمتى.»

«بس بإيديكي تغيّري ده.»

«إزّاي...؟»

«إنتِ عايزة إيه يا منى؟ إيه اللي خسرتيه وعايزة ترجعيه دلوقتي؟»

«أنا خسرتُ كتير، وللأسف ما بقاش ينفع أرجّع اللي خسرتُه.»

«لأ، في حاجات ينفع ترجعيها... لو يا سِتّي على الخروجة الحلوة اللي عايزاها تفضل في صورة – إحنا فيها.» أخرج من جيبه هاتفَه وفتح الكاميرا، واقترب وجلس بجانبِها وألطقت صوّرة لهما. «وأدي الصورة – هبعتهالك عشان تبقي تشوفيها وتفتكري.»

«إنت مجنون!» ضحكت وهي تحاول أن تخرج خارج إطار الصورة، ولكنّه منعها وصوّرهما معًا...

«أهو أدي حاجة رجعت. وممكن نبقى نيجي كل يوم نتصوّر. إيه تاني عايزاه يرجع؟»

«يا مصطفى، افهمني... خلاص، ما بقاش في حاجة ينفع ترجع. وأهمّ حاجة ما ينفعش ترجع خلاص، وخصوصًا بعد الحادثة... أنا عندي ٤٥ سنة وفقدت إحساس إنّي أكون ستّ... ما بقاش ينفع.»

«قلتلك: لازم إنتِ وعادل تتكلّموا في الموضوع ده.»

«لأ – بقى صعب. الموضوع ده خلاص اتقفل.»

«أنا ما بقيتش فاهمِك على فكرة.»

«أنا إحساسي دلوقتي إنّي عاملة زي الميّت اللي روحُه طلعت بس هو لسه بيتحرّك... حواليه ناس كتير، بس مش عارف يتجاوب معاهم أو يفهمهم... حسّ فجأة إنّه غريب وسطهم... بقى بيعشق الضلمة ويموت لو شاف النور... بيعيش على الوحدة ويتسمّم من الونس... جواه صريخ صوتُه عالي بس مش مسموع... حاسّس إن قلبُه مات بس لسه سامع صوت دقّاته بين ضلوعه بس مش لاقي دم... فاكر كل حاجة بس ناسي ترتيبها في ذكرياته... فاكر كل اللي خانوا واللي باعوا ومش لاقي وسط فِكرُه حدّ شاله... موته حلم لكلّ حدّ عرفه، وحياته كابوس للي لسه ما عرفهمش... أنا بقيت زي خيال المآتة – بيخوّف بس ما بيعوِّرش.»

«مَكَنش لازم تبطّلي تكتبي.» ابتسمت على مجاملته.

«بجدّ، إنتِ كان ممكن تبقي شاعرة كبيرة أوي– أو روائية مشهورة– لو اللي بتقوليه ده كتبتيه على ورق.»

«مش أوي كده... الواحد بيطلع الكلام ده لما بياخد من الدنيا ويتعلّم... وأنا أخدت كتير واتعلّمت أكتر.»

«خلّيني أطلب منك طلب – ممكن؟»

«اتفضّل.»

«فكّري في كلامي. صدّقيني عادل طيّب، وهيفهم ويقدّر شعورِك. فكّري تاني – مش هتخسري حاجة... ممكن؟»

«حاضر يا مصطفى... هفكّر.»

ما إن أتمّت جُملتَها، حتى كان هناك رجلٌ يقف خارج زجاجِ المحلّ ويحمل مسدّسًا في يده، يُخَبّئه داخل العباءة التي يرتديها، وإذا به يخرج ويُطلِقُ النيران منه نحوَ المحل... رصاصةٌ واحدةٌ فقط التي وجدت طريقَها الصحيح إلى ظهرِها– مُنى– لم تصرخ ولم يخرجْ صوتٌ لها، بل وقعت على الأرض في صمت. وجَرى نحوها مصطفى مُحاولًا إسعافَها، وسادت الفوضى في المحلّ بين كرٍّ وفرٍّ للمتواجدين داخله، وإذا بشخصٍ يصرخُ مطالبًا أحدَهم بطلبِ الإسعاف...

«يا دكتورة... يا دكتورة!» يُحاول مصطفى أن يجعلَها بقدرٍ من الوعي إلى أن تصل الإسعاف، ولكنّها لا تستجيب. «يا دكتورة... أرجوكي خليكي معايا... إسعاف! حدّ يكلّم الإسعاف!»

«اتّصلنا بيهم– وجايّين في السِكّة.» قالها أحدُ الواقفين، ولم يهتمّ مصطفى لمعرفته أو تحديد

شخصيته...

مرَّ الوقتُ – وشعر فيه مصطفى أنّ دهرًا قد مرَّ عليه – وهو ينتظرُ سيارةَ الإسعاف. شعر وكأنّ روحَه هي التي تخرجُ وليست روحَها. كان يشعرُ بنبضِ قلبها يقلُّ تدريجيًّا بين أناملِهِ التي تضغطُ على معصمِها... خرج من بين صفوفِ الواقفين شخصٌ، قال بأنّه طبيب، أخذ في فحصِها وحاول جاهدًا أن يوقف النزيف... مرَّ الوقت بين أصواتِ صراخٍ وأصواتِ عرباتِ الشرطة، إلى أن سمعوا صوتَ النجدةِ يأتي من بعيد– الصوتَ الذي انتظروه طويلًا وكأنّ الدنيا قد انتهت وهم في انتظاره– صوتَ سيارةِ الإسعاف...

دخل رجالُ الإسعاف وحملوها، والدمُ يتساقطُ منها على كلِّ شيء، وهم يأخذونها إلى السيارة. صعد معها مصطفى وهو يلهث، وملابسُه بكاملها تغرقُ في دمائها، أخرج هاتفَه وأخبر عادلًا بما حدث، وهو يرى رجالَ الإسعاف يُحقِنونها بشيء ما لم يعرفه، وشرعوا في محاولة وقف النزيف، ومراقبة العلامات الحيوية على الجهاز... بعد نحو عشرون دقيقة كانوا قد وصلوا إلى المستشفى. أخرجوها ووضعوها على العربةِ النقّالة، يركضون بها في طرقاتِ المستشفى...

«مصطفى...» خرجت الكلمةُ منها فجأة، جعلتهم جميعًا يتسمّرون في أماكنِهم. اقترب منها مصطفى وأمسكَ يدَها، أكملت جُملتَها ببطءٍ شديد بين الألمِ الذي يظهرُ في نبرةِ صوتِها وعيناها نصفُ مفتوحة: «كمّل... الـ... الصفقة... ما... ما... ما تستسلمش.»

انسَلّت يدُها من بين يدِه وعادت إلى غيبوبتِها، ووقف هو مكانَه. رآهم يدخلون بها إلى غرفةِ العمليات. لم يفهم كيف – وسط كلِّ هذا – تذكّرتِ الصفقة! كيف – مع كلّ ما نزفته من دماء– تحمّلت وأفاقت لتُذكّره ألّا يستسلم... لم ولن يفهمَها مهما عاشرَها. حتى زوجتُه لم ترَ شخصيةً مثلها – مع كلّ ما رأته. لم يرَ أبدًا شخصًا في صلابتِها وإصرارِها. حقًّا هي قد خسرت الكثير، ولكن الكثير قد تعلّم منها. حتى هو تعلّم منها الكثير؛ تعلّم منها الصبرَ والإصرار، تعلّم منها القوّة... لم يشعر بنفسِه إلّا وتلك الدمعةُ تخرجُ من عينِه. لم يحاولْ مسحَها أو إيقافَ توابعِها، بل ترك بقيّةَ الدموع تخرج – دمعةٌ وراء الأخرى. جلس على الكرسي، وأخفى وجهَه بين يديهِ، وظلّ يدعو أن تنجو مثل كلّ مرّة، وألّا تتركه؛ فهو لن يكون مثلَها أبدًا، ولن يجد مثلَها ليُدير هذا الصرحَ الضخم. أغمض عينيهِ وحاول أن يتذكّر نصائحَها له، وحاول أن يقوّي نفسَه وألّا يستسلم كما قالت له، ولكن كان قلبُه يخرجُ له بذلك السؤال دائمًا... ماذا إذا لم تَنْجُ؟!

تمت بحمد الله

يونيو ٢٠١٣

نرحلُ دائمًا بلا تردُّدٍ أو تفكير، نرحلُ ونتركُ كلَّ شيءٍ خلفَنا،
ولكن يومًا ما سنكتشفُ أنَّه لم يَعُدْ هناكَ وقتٌ للرحيلِ، ولم يَعُدْ هناكَ مكانٌ نرحلُ إليه.

كيرياليسون

Kyrie Eleison

Κύριε ἐλέησον

يا رب أرحمنا

لـم يكـن صـوتُ الطائـراتِ شـيئًا يُهيـبُ أو يُخيـف الأطفـالَ الذيـن يـملأون الشـوارعَ فـي ليالـي الصيـف، وفـي بعـضِ الأحيـان يعلو صوتُهـم على صـوتِ الطائراتِ والرصـاصِ، وكأنهـم لا يدركـون أن تلـك الطائـرات هـي المـوتُ بعينـه. لـم يعـد ذلـك الشـيءُ يُخيـف الأطفـال كما كان يُخيفني عندما كنتُ في عُمرِهم منذُ عشرين عامًا. أذكـرُ اليـومَ الأولَ الـذي سمعتُ فيـه أزيـزَ الطائرات – وأنـا فـي السـابعةِ مـن عمـري – وهـي تُحلّـق فوقنـا، ومنظـرَ القنابـل التـي كانـت تنهـالُ على القريـة وتدكُّهـا دكًّا حينهـا. لـولا أنهـم أخبرونـا أن نُخلـي المـكان قبـل الهجـوم لما عـاش أحـدٌ؛ يومهـا مـات مـن رفـض تـركَ منزلَـه متمسـكًا بذكرياتـه إلى آخـر نفـس.

لـم يكـن مـا تبقّـى مـن القريـة شـيئًا يُذكـر، كانـت رمـادًا عندمـا عدنـا إليهـا. رفـض الكثيـرُ مـن أهلهـا الهجـرةَ أو النـزوحَ إلى أرضٍ أخـرى، رغـم أن الحـربَ لـم تتوقـف، ولـم يقـف الضـربُ أو أزيـزُ الطائـراتِ كلَّ ليلـة. عندمـا عدنـا ذلـك اليـوم لـم نسـتطع أن نُحـدِّد بيـتَ مـن كان ذاك الحُطـام. ولكـن لدهشـة الجميـع ظلّـت أعمـدةُ ذاك البيتِ واقفـةً لـم تنكسـر أو تنهـدم؛ سـقط البيـتُ كلّـه إلا أعمدتُـه. ظلّـت واقفـةً هنـاك، يحـوم السـوادُ حولهـا مـن كلِّ الأنحـاء. شـعرتُ وكأنهـا تقفُ حـدادًا على صاحبهـا – ذلـك الرجـلِ الغامـض.

لـم أعـرف اسـمَه حينهـا، لـم ينطـق رجـلٌ فـي القريـة كلّهـا باسـمِه أو بشـيءٍ عنـه. كانـوا إذا أرادوا أن يتحدّثـوا عنـه يلقبونـه بـ«القبطـي»، ذلـك الـذي أتـى مـن مصـر، تلـك

الأرض البعيـدة التـي نسـمعُ عنهـا القليـلَ كلَّ حيـن. نسـمع أنهـم قادمـون لنجدتنـا ولكنهـم لا يأتـون أبـدًا. ظننـتُ يومًا أنها مجـرّدُ حكايةٍ يحكيها العجائـز لإقناع أنفسـهم بـأن الـخلاصَ قـادم. وكانـوا دائمًـا يتكلّمـون عـن وحـدةٍ قديمـةٍ طواهـا الماضـي فـي خبايـاه ونسِـي أصحابُها مبادئَهـا.

لـم يقتـربْ أحـدٌ مـن هـذا الرجـلِ أبـدًا منـذ أن جـاء إلى القرية – هكـذا قالـوا. لـم يُغـادر بيتَـه أبـدًا، كان يـزرعُ كلَّ ما يـأكل، لـم يـأكل اللحـمَ أبـدًا ولا أيَّ شـيءٍ يأتـي مـن المواشـي. كان دائمًـا يـزرع الخضـارَ والفواكـه. لا يتحـدّث مع أحـدٍ ولا يُحادثـه أحـد. لا يـزور أحـدًا ولا أحـدٌ يـزوره. أتـى إلى القريـة وحيـدًا بلا عائلـة، اشـترى البيـتَ وعـاش فيـه دون أن يُحـادث أحدًا. كل مـا قيـل: إنـه اشـترى البيتَ من مصـر.

كان الجميـع يهابونـه فـي القريـة، كبـارًا وأطفـالاً، لـم يقتـرب منـه أحـد. كان يلبـس تلـك العبـاءةَ السـوداء ويعلّـق فـي رقبتـه صليبًـا فضيًّـا متوسـطَ الحجـم، ليـس بحجـمِ قساوسـة الكنيسـة، ولكنـه أكبـرُ مـن ذاك الصليـب الـذي كانـت تلبسـه الخالـةُ ميشـيل والـدةُ مرقـص. لا يخـرج مـن المنـزل إلا عنـد الزراعـة أو الحصـاد. كأيِّ طفـلٍ يدفعـه الفضـول، تلصّصـتُ عليـه مـرارًا. لـم يكـن يفعـل شـيئًا عـدا الطبـخ أو الجلـوس أمـام صـورٍ عديـدةٍ يتوسـطُها صـورةُ المسـيح، يترنّـم بكلمـاتٍ لـم أفهمها أبـدًا فـي ذلـك السـنّ، ولـم يكـن مـن الممكـن أن أسـأل عـن معناهـا حتـى لا أُعاقَـب باقترابـي منـه. أتذكّـر

إلى الآن ما كان يقوله؛ كان كلامُه يعودُ على مسمعي كلّ حين، رغم مرور تلك السنين.

لم يرحل عندما رحل الآخرون. أتذكّر ذلك اليوم جيدًا؛ أتى مرقص قائلاً إنهم راحلون – عائلته وبعض العائلات الأخرى. لم أفهم وقتها لماذا هم بالذات، ولماذا لا نرحل نحن أيضًا. وعندما سألت أجابني والدي يومها بكلمةٍ واحدة: «مسيحيون». لم أفهم معناها في ذلك الوقت؛ كنتُ مجرد طفلٍ في السابعةِ من عمره، لا يفهمُ اختلافَ الأديان أو الطوائف.

ولكن القبطي لم يرحل. أليس مسيحيًّا؟ أليس ما على صدره صليب؟! لم تُحاول أيُّ عائلةٍ مسيحية أن تأخذَه معها أو تطلبَ منه الرحيلَ معهم حتى يتجنّبوا ما سيحدث لهم إذا بقوا. كانوا يهربون من مصيرِ هؤلاء الرجال الذين قُتِلوا لأنهم لم يخلعوا الصليبَ أو رفضوا أن يقولوا الشهادة.

أيامٌ أخرى مضت ورأيت يوسف يرحل هو أيضًا مع عائلته، ولكن الإجابة تلك المرة من أبي اختلفت: «سُنّة». لم أستوعب أيضًا، أليسوا مسلمون مثلنا؟ أليس علينا أن نرحل نحن أيضًا؟! خافوا هم أيضًا – من ماذا؟ لم أفهم. ألا يُصلّون في المساجد مثلنا؟ أليسوا يصومون رمضان ويردّدون الشهادة كما نفعل نحن؟! رحلوا هم أيضًا ولم يُحاول أحدٌ منهم أن يأخذ معه ذلك القبطي.

لم يرحل ذلك القبطي أبدًا، ظلّ هناك يقبع في البيت سنتين. لم يستطع أحدٌ – حتى هؤلاء حاملي السلاح

– أن يقتربوا من منزله، كانوا يخشونه كما يخشاه كلّ أهل القرية. كانت الحربُ قائمة، ولكنها كانت بعيدةً عن قريتنا. كنا نسمع الأخبار عمّا يحدث حولنا، ويأتي حاملو السلاح يأخذون ما يأخذون ويقتلون كلَّ من يرفض أو يُقاوم ثم يرحلون.

حتى أتى ذلك اليوم... أخبروا الجميع أن الحربَ قادمةٌ لقريتنا، وأنهم يستهدفون حاملي السلاح بتلك المنطقة. لم أفهم لماذا يقصفون قريتنا ولم يحمل أحدٌ من أهلها سلاحًا. كان الجميع يشدّون الرحال، الكلُّ يجمعُ ما يستطيعُ حملَه، لكن ليس القبطي. جمعتُ جرأتي وذهبتُ إليه؛ كنتُ أرتعشُ رُعبًا. لا أعرفُ ماذا سيفعل بي أو كيف سيُعاقبني أبي على فعلتي تلك. وقفتُ أمامَ بابه أُحاول أن أتحكمَ في يديَّ وأجبرَها أن تطرقَ الباب، ولكنّها كانت أقوى منّي وظلّت مُتحجّرةً بجانبي. جاء على مسمعي ما يترنّم به؛ لم أفهم حرفًا، لكن تلك الكلمة كانت ترنُّ في أذني دائمًا: «كيريالیسون» كانت واضحةً وقويةً يتخلّلها صوتُ بكائه.

استجمعتُ قواي ودققتُ على بابه، شعرتُ وكأن دهرًا قد مضى وأنا أنتظر أن يفتح. وشعرتُ بمعدتي تتلوّى حين سمعتُ وقع أقدامِه تقترب. لم أره من قريب من قبل؛ دائمًا كان يقف بعيدًا أو تختفي ملامحُ وجهه تحت وشاحه. ولكن عندما فتح لي تلك الليلة ورأيتُه عن قرب، توقّف قلبي عن دقّاته المتسارعة وتوقّفت معدتي عن التلوي.

كان يلبس بنطالًا وقميصًا أبيض، وفوقهما رداءً بنيّ اللون، ووجهه كان أبيضَ ذا عينين بنيّتين ولحيةٍ سوداء مهذبة تعلوها ابتسامةٌ تُحارب آثارَ العجز على وجهه. سألني ماذا أرغبُ بصوتٍ هادئٍ يغلبُ عليه الحنان. لم أستطع أن أفهم لماذا يخافه أهل القرية؛ ليس بمظهر ساحر ولا وحش. كان عجوزًا مثل كل عجائز القرية، ليس به ما يريب أو يُخيف.

أخرجني من حيرتي بتكرار سؤاله. قلتُ له: ألن ترحل؟ أجابني بأنه لم يعد هناك وقتٌ للرحيل ولم يعد هناك مكانٌ نرحل إليه. طلب مني أن أتركه وأذهب إلى أمي حتى لا تقلق عليّ، وأعطاني قطعةً من حلوى، ثم ابتسم وأغلق الباب. كنتُ أرغبُ أن أعاودَ الدقَّ على بابه ولكن صوتَ أمي وهي تبحث عني جعلني أجري بعيدًا حتى لا تراني أمام بيته.

وجاء الوقتُ ورحلنا. وقفنا بمقربةٍ من القرية نستطيع أن نرى ما يحدث ولكننا كنّا في مأمن. لم أنشغل يومها ببيتي أو فنائي أو مدرستي أو لعبي. لم أنشغل بأيِّ شيءٍ أحببتُه يومًا؛ كلّ ما كان يشغلني هو ذاك القبطي الذي بقي هناك وحيدًا بين قصف الطائرات. وعند عودتنا، كان منظرُ أعمدةِ بيته واقفةً صارمةً حدادًا على روحه صادمًا وموجعًا. حملتني قدمايَ إلى الأنقاض؛ كنتُ أبحثُ عنه، ربّما يكون قد نجا، ربما يحتاج إلى مساعدة. ولكنّي لم أجده؛ ربّما كان تحت الأنقاض. حاولت أن أزيحَ الحجارة ولكن لم أستطع؛ كانت يدي أضعفَ من حملها.

وجدتُ الدفتر الذي كان يكتب به بين الأنقاض غارقًا في الرماد. مددتُ يدي إليه وأخذته وخبّأته بين ملابسي. ظللتُ أمشي بين أنقاض المنزل أبحث عن أيِّ شيء. وجدتُ الصندوق الأسود الضخم الذي كان يُغلقه بقفلٍ كبير؛ كنتُ دائمًا أراه من النافذة وهو يفتحه ولم أستطع أن أرى ما بداخله. وجدته وقد كسره القصف. مددتُ يدي وأزحتُ ما فوقه وتناولتُ ما كان بداخله.

لم يكن هناك سوى أوراقٍ وصورٍ قديمة. رأيتُ كتابًا يشبه الذي كان بحوزة مرقص ولكنه كان مكتوبًا بنفس اللغة الغريبة التي كان يكتبُ بها. وجدتُ أوراقًا كثيرةً وصورًا أكثر. دقّقتُ النظرَ في الصور فوجدتُها تجمعُ بينه وبين امرأة، كان أصغر سنًّا مما بدا، وكانت المرأة صغيرةَ السنّ أيضًا، ربما تكون بعمر والدتي أو أصغر. كان يبتسم ويحتضنها بيده وهما ينظران إلى الكاميرا. كانت السعادةُ تملأ وجهه.

حاولتُ أن أُدرك من كانت تلك المرأة ولكني لم أجد أيَّ معلوماتٍ مكتوبةٍ على الصور. جمعتُ كلَّ ما وجدت وخبّأتُه في ملابسي. خبّأتُه في مكانٍ ما بالتلّ القريب حيث تعوّدتُ أن ألعب. ظللتُ أذهبُ إلى هناك كلَّ يوم، أُحاول أن أقرأ ما في تلك الأوراق، ظللتُ أحاول أن أفهم. عشرةُ أعوامٍ وأنا أحاول، عشرةُ أعوامٍ وجسدُه ما زال تحت التراب لا يجرؤ أحدٌ على البحث عنه أو الاقتراب منه، حتى وهم يبنون القريةَ مرةً أخرى تركوا مكان بيته كما هو. وكان كلُّ طفلٍ

يقترب منه يُعاقب.

أتذكّر ذلك اليوم عندما وجدتُ وسط الأوراق قاموسًا يدويًّا مكتوبًا بخطّ يده، وكأنه كان يُحاول أن يتعلم لغةً ما. وجدتُ كلماتٍ فيه تُشبه ما في كراسه وورقه، بدأتُ أجمعها وأُحاول أن أترجمها من تلك اللغة إلى العربية. أوّل ما نزلت عليه عيناي هي تلك الكلمة التي كانت ترنُّ في أذني: «كيريالیسون» أو كما فهمتُ بعد ذلك: «ربّ ارحمنا». وفهمتُ الكلمة التي كان يكتبها كثيرًا «Ouoh a n eteron nan ebol» أو «اغفر لنا ذنوبنا».

كانت الكلماتُ عند جمعها تُشبه تلك الصلاة التي كنتُ أسمع مرقص يترنّم بها في عيده. كان كلُّ هذا الوقت يُصلي كما يُصلي الآخرون ولكن بتلك اللغة الغريبة، اللغة التي سماها أعلى قاموسه «القبطية». لم يكن ساحرًا كما اعتقدتْ أمي وعجائزُ القرية، كان يتحدث لغةَ بلاده. ولكن أليست مصر تتحدث العربية؟ ما تلك اللغة الغريبة؟ وكيف عرفها أهلُ القرية وأطلقوا عليه «القبطي»؟!

ليس هناك أيُّ طريقةٍ للمعرفة غير السؤال، والسؤال هنا يعني العقاب. كنتُ أُعاقب إذا سألت عن مرقص أو يوسف بصوتٍ عالٍ أو خارج المنزل؛ كان أبي دائمًا ينهرني ويردُّ قائلاً بغضب: «هل ترغب بأن نُقتل أم نُرحَّل مثلهم؟». ظللتُ أُحاول أن أفهم من أوراقه حتى وجدتُ ورقةً تُشبه الخطاب. بدأتُ أُحاول أن أترجمها إلى العربية، أخذتُ وقتًا طويلًا حتى انتهيتُ

منها:

زوجتي الحبيبة ماري،

اتخذكِ الربُّ منذ سنواتٍ بجانبه، أخذ روحَكِ الطاهرة وحماها بين يديه. لستُ حزينًا فأنا أعرف أنكِ بجنّةِ السماء، وأن مشيئة الرب فوق كلّ شيء. ولكنّي لا أستطيع أن أعيش بدونكِ في مصر؛ سأرحل إلى بلدٍ آخر، وسآخذ معي كلَّ ما بقى منكِ، سأتعلم لغتَنا القديمة القبطية، سأُصلي بها من أجلكِ ومن أجلي ومن أجل بلادِنا. سأُصلي إلى هذا العالم حتى يغفر له الرب؛ لم يعد السلام يعمّ الأرض، لم تعد هناك محبةٌ أو رحمة، الجميع يريق ويستبيح دماء الجميع، لم يعد هناك عاقلٌ ليتحدث، جنَّ الجميع، وكأن نهاية العالم قد أتت. لم يعد الأخضر أخضرَ والأبيض أبيضَ، أصبح كلُّ شيءٍ يُخيّم عليه السوادُ والعتمة. لم يعد هناك مكانٌ لأمثالنا. لم يعد هناك مكانٌ لكلمة الرب. الجميع غرق في الخطيئة، واختاروا الخطيئةَ الكبرى: يقتلون النفس.

اخترتُ الرحيل عن كلّ شيء في تلك القرية في بلاد الشام، بعيدًا عن الأحداث، سأعيش ما بقى لي في خدمة الرب، لن أقترب من امرأةٍ من بعدكِ وسأزهد في الدنيا حتى تأتي مشيئة الرب وأَنضمَّ إليكِ في جناته.

فليغفرْ لنا وليرحمْنا الرب.

ويليام متى.

كانت الرسالةُ كافيةً لأفهم حكايتَه، وأعرف من أين

جاء ولماذا. عرفتُ لماذا كان وحيدًا صامتًا، ليس فقط حزنُه على زوجته ولكن حزنُه على العالم وما يحدث من حوله. كان يأمل أن يُبعِدَه في قريتنا المنسية، ولكنّها أيضًا غرقت في الخطيئة. لهذا لم يرحل؛ فلم يعد هناك مكانٌ يعيش فيه بسلام. ترنُّ صلاتُه في أذني كثيرًا، ترنُّ كلما سمعتُ أزيزَ الطائرات قادمًا: كيريااليسون.

تمت بحمد الله

يناير ٢٠١٧

الخاتمة

شكراً لكل واحد قرأ القصص وهي لسه مسودة،

شكراً لكل واحد شجعني عشان أنشر الكتاب

وشكر أهم للناس اللي كانت شايفة أني مابعرفش أكتب

للتواصل مع الكاتبة

www.reemfathy.com

@reem-afathy